محاضرات في

تاريخ العلاقات المصرية الافريقية في العصر الإسلامي

إعداد

د/ مسعود محمود

د/ إسماعيل حامد

أولا : موقع مصر الجغرافي وأهميته ودور مصر الحضاري النابع من دورها الإسلامي

حبا الله سبحانه وتعالي مصر بموقع فريد لم يتهيأ لبلد آخر نظراً لأن موقعها في الركن الشمالي الشرقي لقارة أفريقيا عند ملتقي قارتي أفريقيا وآسيا وعلي مقربة من أوربا قد جعلها مجمع القارات في العالم القديم ومفرق البحار وملتقي الشرق والغرب.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أهمية مصر لم تنبع من موقعها ونيلها فحسب وإنما نبعت أيضاً مما أمدت به العالم من مقومات حضارية وروحية واقتصادية وثقافية كانت نبتا للمصريين وترعرعت بين جنباتهم.

وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مصر فقال إنها (أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر وحل الضعيف والقادر.

وإذا كانت مصر قد قامت بدور مهم في التجارة العالمية فمن البديهي أن تكون صلتها بأفريقيا القارة الأم من أقدم الصلات والدليل علي هذا أن علماء الآثار عثروا في مقابر عصر ما قبل التاريخ علي مواد لا توجد في مصر مثل اللازورد وحجر الاوريسيديان والعاج مما يثبت وجود تجارة مع أفريقيا في ذلك العصر المبكر.

وفيما يتعلق بالمصريين أنفسهم فإن النيل ذلك النهر الباعث للحياة والمجهول المنبع ذو الجريان المنتظم والمواعيد الثابتة في الفيضان كان هو سبب اهتمامهم بالجنوب ولهذا نجد أن ملوك مصر في تلك العصور القديمة قد استمروا في إرسال البعثات والحملات للجنود وبلغ اهتمام ملوك الأسرة الحادية عشرة بالجنوب درجة كبيرة جعلتهم يشيدون الحصون عند الشلال الثاني كذلك أقام المصريون عند حدود مصر

الجنوبية مخزناً كبيراً لإيداع ما يحمله التجار من بضائع كما أقام هناك حاكم مصري[1].

ومن نقوش الدير البحري تتضح أخبار البعثة البحرية التي أرسلتها أولى ملكات التاريخ حتشبسوت إلي بلات بونت لجلب البخور واللبان وغيره من خيرات البلاد الأفريقية إلى مصر ولنقل بعض أشجارها بقصد زراعتها في حديقة معبدها، كذلك عثر علي نقش ذكر فيه رمسيس الثاني (١٣٥٠ ق.م) أمر ببحث وسائل توفير المياه في بعض طرق الصحراء الشرقية المؤدية إلي بلاد النوبة إذ كان الناس والدواب يموتون عطشاً بها.

وبرز الاهتمام بأفريقيا في عهد نكاو الثاني (٩٩٦ – ٩٥٤ ق.م) الذي أنشأ أسطولاً صغيراً في البحر الأحمر الكشف عن ساحل أفريقيا وأرسله وبه ملاحون فينيقيون قضوا ثلاث سنوات في رحلتهم حول الشاطئ الأفريقي حتى عادوا من بوغاز جبل طارق إلي مصر محملين بجميع خيرات أفريقيا التي حصلوا عليها أثناء رحلتهم.

وبانقضاء عصر الفراعنة ظلت مصر طوال العصريين البطلمي والروماني حلقة التجارة العالمية واستطاع ملوكها وحكامها من الرومان أن يحولوا التجارة في البحر الأحمر إلي الموانئ المصرية الواقعة علي هذا البحر ومنها تحمل البضائع عبر الصحراء الشرقية الي أن تصل إلي قفط.

ولم تتغير علاقة مصر التجارية مع أفريقيا بعد الفتح العربي بل ازدادت الصلة ونمت التجارة حيث شرع عمرو بن العاص في حفر خليج أمير المؤمنين للوصل بين البحرين الأحمر والمتوسط عن طريق النيل كذلك زادت أهمية برزخ السويس وأصبحت مدينة الفرما والقلزم من أهم موانئ الشرق الأدنى نشاطاً فى ميدان التجارة العالمية كما ازداد التبادل التجاري أيضاً بين المغرب والمشرق فكانت المتاجر الآتية من المغرب تشتمل علي المولدات الحسان والعنبر والأكسية والزيت وكانت مدينة

1) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، ص١٣.

الإسكندرية محط التجارة الرئيسي للبضائع الواردة من المغرب سواء عن طريق البحر أو البر[2].

ونشطت علاقة مصر التجارية في ظل الإسلام مع النوبة والسودان وأواسط أفريقيا فضلاً عن علاقاتها مع الحبشة والصومال.

ولا يخفي علينا أنه كان لانتشار الإسلام وحضارته في جزء واسع من العالم القديم وسيطرة المسلمين علي البحار أثر كبير في أن يتصدروا المعرفة الجغرافية في تلك العصور فالفتوح الإسلامية والحج وطلب العلم والتجارة والرحلة كلها عوامل ساعدت وشجعت علي الكتابة الجغرافية والتاريخية.

وذلك أن اتساع الفتوح الإسلامية من الهند وحددت الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً جعل الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً مهما من العمل الإداري للدولة فصار وصف الأقاليم والعناية بها جزء من أخبار الفتوح والمغازي والتنظيم وبعد ذلك جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث تقدير ثروتها ومقدرتها علي دفع الضرائب وهنا تجد أول استقلال لما يصح أن يسمى بالجغرافية الإدارية أو السياسية عن الفتوح والمغازي وأخبارها وهذه الجغرافية الإدارية تبدو واضحة في كتاب (المسالك والمالك(الذي وضعه ابن خرداذبة في أواسط القرن الثالث الهجري وفي كتاب (الخراج صنعة الكتاب(لقدامة بن جعفر.

أما من الناحية الدينية فإن الإسلام جعل الحج أحد أركانه الخمسة الأساسية فجاء في القرآن الكريم وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ / لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ / ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ / ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ

2) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ص١٦.

الأمر الذي ترتب عليه انطلاق الاف المسلمين سنوياً من مختلف انحاء العالم الإسلامي لتأدية فريضة الحج في الحجاز وكانت الأسفار تتم حينئذ علي ظهور الدواب أو بالبحر أو سيروا علي الأقدام ولذا ظهرت العناية بوصف خير الطرق وأيسرها للوصول إلى مكة المكرمة ومدينة الرسول وشرح الصعاب التي تواجه الحاج ووسائل التغلب عليها ومن أمثلة هذه الكتابات التي تعد أعظم ما دونه الرحالة في العصور الوسطى ما كتبه كل من ابن جبير وابن بطوطة[3].

ويضاف الي هذا كله التنقل في سبيل طلب العلم. إذ جاء في حديث شريف (من سلك

طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له بد طريقا إلى الجنة[4].

ويجب أن نلاحظ في هذا المقام أن التخصص العلمي بمعني أن يكون الجغرافي جغرافياً فحسب لم يكن معروفاً في تلك العصور التي كان فيها العالم موسوعياً يكتب في أكثر من فن من فنون المعرفة لأن الحياة لم تكن قد تعقدت بالصورة التي تعقدت بها في عصرنا الحديث مما يستتبع التخصص الدقيق في فرع من فروع المعرفة.

ومن أهم الجغرافيين والرحالة العرب الذين أثروا معرفتنا بجغرافية وتاريخ القارة الأفريقية التي ظل الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر لا يعرفون عنها إلا النزر اليسير اليعقوبي، المسعودي، المقدسي، ابن حوقل الإدريسي، ياقوت الدمشقي، العمري وابن بطوطة.

وأما عن المسعودي فإن كتابه مروج الذهب فهو مؤلف جمع بين السياسة والعمران والتاريخ والجغرافية بأفرعها المختلفة من طبيعية وبشرية.

---

3) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ص ١٧.

4) صحيح ابن ماجه – حديث رقم : ١٨٣ خلاصة حكم المحدث: صحيح

وعلي الرغم مما يقوله بوفيال Bovil من أن مساهمة المسعودي في معرفتنا بالسودان لم تكن كبيرة إلا أن هذا القول يبدو مجافياً لما قدمه المسعودي حيث ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم في كتاب أخبار الزمان في الفن الأول من جملة الثلاثين فنا.

وهذا كتاب الضخم والكتاب الأوسط من مؤلفات المسعودي لم يصلانا للأسف ولم يعرفا إلا من خلال اقتباسات ضئيلة وعلي الرغم من ضياع هذين المؤلفين فإننا نستطيع من خلال ما وصلنا معرفة الكثير من تاريخ هذه المنطقة وجغرافيتها.

والواقع أن المسعودي يعد أول من أفاض في الحديث عن شعوب الزنج وذهب إلي منطقتهم وقطعت الزنج دون سائر الأحابش ... وسكن الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلي بلاد سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج وإليه تقصد مراكب العمانيين والسرافيين، كذلك ذكر البلاد الواقعة في الزنج والمسافة بين كل بلدا وآخر وعرض لبعض الملوك ولبعض أهالي تلك البلاد وتقاليدهم الاجتماعية وما بتلك البلاد من حيوان ونبات ومعادن بل ذهب فيما يعرف حديثاً باسم التحليل الاقتصادي وذلك في معرض حديث عن تجارة العاج وسبب ارتفاعها في بلاد الإسلام مبيناً أن سبب ذلك في نقلها إلي أسواق عمان مما أدى إلى قلة المعروض في بلاد الإسلام. ويعد (مروج الذهب(أهم مصادرنا عن تاريخ السودان حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

أما الشريف الادريسي: فيعد أكثر الجغرافيين العرب اهتماماً بأفريقيا وخاصة جنوبي الصحراء الكبرى، وإليه يرجع الفضل في توضيح حقيقة منابع النيل بعد أن تضاربت الأقوال في هذا الشأن منذ أقدم العصور، وفي خريطة للأدريسي محفوظة اليوم في أحد متاحف فرنسا رسم النيل نابعاً من بحيرات كبيرة جنوبي خط الاستواء وهذا أول بيان حقيقي لنابع النيل في التاريخ بعد أن تخبط الجغرافيين في وصف متابعة وتعليل فيضانه منذ أيام هيردوت.

فيقول عن ذكر منابع النيل .. مخرجه من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشر درجة.. ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار فتمر بأجمعها إلى أن تصب في بطيحة كبيرة جداً وهذه البطيحة (البحيرة) المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له وفي أسفل هذه البحيرة التي بها تجتمع الأنهار جبل معترض يشق أكثر البطيحة ويمر منها إلى جهة الشمال مغرباً فيخرج من ذراع واحد من النيل فيمر في جهة المغرب وهو نيل بلاد السودان الذي عليه أكثر بلادها ويخرج من شفا الجبل الشرقي الذراع الثاني فيمر أيضاً إلي جهة الشمال فيشق بلاد النوبة وبلاد مصر[5].

هذا قليل من كثير مما ذكره الإدريسي عن افريقيا ويتضح لنا من كتاباته مدى عنايته بها. حيث كان يدقق كثيراً بل أنه عمد إلى تعليل كثير من الظواهر التي تبدت له.

أما ياقوت الحموي فقد وضع كتابة معجم البلدان بعد أن حاز معرفة واسعة بالعالم وقد وضعه على أساس أعمال الجغرافيين السابقين ولكنه أثرى بواسطة المادة التي جمعها بنفسه خلال رحلاته الواسعة.

وقد أفادنا هذه المعجم كثيراً عن أفريقيا فكتب عن مدنها وأصقاعها وكورها فمثلاً كتب تحت مادة التبر بلاد(من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر واليها ينسب الذهب الخالص وهي في جنوب المغرب تسافر اليها التجار من سجلماسة إلي مدينة في حدود السودان يقال لها غانة وجهازهم الملح وخشب الصنوبر وهو من أصناف خشب القطران إلا أن رائحته ليست بكريهة ويستكثرون حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة السماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر فيمرون بطريقهم علي طحاري فيها رياح السموم وحتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فإذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان ويقال أنهم في مكان واسرابه تحت الأرض عراة لا يعرفون سترا

5) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وافريقيا في عصر المماليك، ص ٢٢ .

كالبهائم مع أن هؤلاء القوم لا يدعى تاجر أنه رآهم وإنما هكذا تنتقل صفاتهم فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما معهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف علي وجهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلي جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم[6].

هذا قليل من كتبه وياقوت عن بلاد ومدن أفريقيا ففي هذا الجزء البسيط عن التبر يصف لنا طريق التعامل وطرق السير وأهم المواد المتبادلة كذلك يذكر موقع مقدشوا وأجناس أهلها حيث يذكر أنهم جنس متوسط بين الحبش والزنوج مما يدل علي معرفته بأجناس الحبش والزنوج كما تعرض لذكر أهم صادراتهم.

ثم يأتي الدمشقي الذي يعتبر كتابة (نخبه الدهر في عجائب البر والبحر في أسلوبه وترتيبه من أعظم مؤلفات الجغرافية الإنسانية والتاريخ الطبيعي في المكتبة العربية وقد كتب الدمشقي عن وصف بلاد السودان وأسمائها وبقاعها والأنهار التي تشق بلادها وأعمال أهلها وما يزرع بأرضهم وما بها من حيوانات وطيور (وأقربها من صحاري البربر مدينة كوكو وهي في سفح جبل يشقها نهر يسمى بها يأتي من بيحرة كورى الجامعة ويصب في نهر غانة وجرية شديد وله وقت يزيد فيه ويزرع عليه القمح وغالب الحبوب والقطن هناك يصير شجراً كبارا.

وبعد العمري أحد ثلاثة مؤلفين أمدونا بمعلومات مهمة عن تاريخ إمبراطورية مالي في العصور الوسطى والأخران هما ابن خلدون وابن بطوطة.

ففي كلامه عن مالي أمدنا العمري بمعلومات وفيرة عن جغرافيا وتاريخها وبعض جوانب من حياتها الاجتماعية والاقتصادية وقد استقي العمري معلوماته من أمير صاحب أحد المصاحبين لمنسا موسى سلطان مالي أثناء حجة ويطن مني قرأ

6) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ص ٢٤ .

كتابات العمري عن مالي أنه زار تلك البلاد فمما قاله عن مالي (ذات أعمال وقرى وضياع وهي كثيرة الدواب من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال وأنواع الطير والدواجن كالأوز والحمام والدجاج ويتكلم عن حج منسا أعظم سلاطين مالي (خرج من بلده بمائة وستين جمل من الذهب أنفقها في حجته على القبائل وبطريقة من بلاده إلي مصر ثم من مصر الي الحجاز الشريف في التوجه إلى العودة حتى احتاج الى القرض فاستدان علي ذمته من التجار بمكة.. واخبرني أمير صاحب أن المعاملة في التكرور بالودع[7].

كذلك تكلم عن الحبشة والنوبة والكائم حيث قال عنها (وبينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً وقاعدة ملكهم بلدا اسمه جيمى وعساكرهم يتلثمون وملكهم علي حقارة سلطان وسوء لا يراه أحد إلا في يوم العيد يرى بكرة وعند العصر وفى سائر السنة لا يراه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب وغالب عيشهم الآن الأرز والقمح والذرة..

والواقع أن كتاب مسالك الأبصار أمدنا بفائدة كبيرة وخاصة فيما يتعلق بتاريخ بلاد جنوبي الصحراء وجغرافيتها وعباداتها ومعاملاتها أو ما أطلق عليها السودان بمعناه في العصور الوسطى أي من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر حيث إن الإسلام كان قد امتد زمن العمري إلى كثير من ممالك جنوب الصحراء ولذلك تكلم العمري فيما احجم عنه الكتاب السابقون لأنها في أزمانهم من ممالك الكفار فضلاً عن أنه ذكر كل بلد علي حدة فتكلم مثلاً عن الكائم ومالي والحبشة وهكذا.

وابن بطوطة أول رحالة جاب الأفاق المجهولة فى الصحراء الكبرى وكتب عن مشاهداته فيها كما كتب عن أفريقيا جنوب الصحراء كثيراً ووصف عادات أهلها ومعاملاتهم وتحدث عن أمرائهم وكان شديد الملاحظة دقيقها فوصف بعص حاصلات السودان وعادات أهله وقال عن تذلل السودان للكهم (والسودان أعظم الناس تواضعاً للكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون (منسا سليمان كي،

7) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ص ٢٦ .

فإذا دعا أحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه وبس ثوباً خلقه ونزع عمامته ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف مسافة وقدم بذلة ومسكنه وضرب الأرض بمرفقيه.. والواقع أن ابن بطوطة أفادنا كثيراً فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لأفريقيا([8]).

وبعد فلعله يتضح من عرضنا السابق كيف أن الجغرافيين والمؤرخين والرحالة العرب أسهموا إلى حد بعيد في تعريفنا بجغرافية وتاريخ واقتصاديات القارة الأفريقية.

8) شوقي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ص ٢٨.

عوامل انتشار الإسلام في إفريقيا

الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا

– الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا جنوب الصحراء) كثيرة ومتعددة، منها:

طرق القوافل التجارية التى تربط بين شمالى القارة وبلاد السودان الغربي والأوسط (غرب إفريقيا)، ومنها الطريق الذى يبدأ من جنوبي «تونس» ويتجه إلى «بلاد الكانم والبرنو» في حوض بحيرة تشاد»، والطريق الذي يبدأ من جنوبي «الجزائر» ويتجه إلى «بلاد الهوسا» في شمال نيجيريا»، والطريق الذى يبدأ من جنوبي مراكش» ويصل إلى مصب نهر السنغال» ومنحنى «نهر النيجر» و «نيجيريا»و «تشاد».

وطريق بحرى يسير عبر مياه البحر الأحمر» و «خليج عدن» و «المحيط الهندى»، ويربط هذا الطريق بين «شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا، ومنه دخل الإسلام إلى شرق القارة وخاصة إلى «إريتريا» و «الصومال» و «الحبشة» و «زنجبار » وساحل شرقى إفريقيا حتى مدينة «سوفالة» جنوب «نهر الزمبيزى» في «موزمبيق». وطريق وادى النيل وطريق درب الأربعين اللذان تدفق منهما الإسلام إلى «بلاد البجة» «بلاد النوبة» وإلى «دار «فور» وبقية بلاد السودان الشرقى»، وهو «سودان وادى النيل» الذي يعرف الآن بجمهورية السودان ([9])

ويلاحظ أن معظم هذه الطرق طرق تجارية ، ولم تستخدم كمعابر للجيوش إلا فى القليل النادر ، مما يؤكد سمة الطابع السلمى لانتشار الإسلام فى قارة إفريقيا. ومما يؤكد ذلك أيضًا أن أهل القارة أنفسهم سواء أكانوا من البربر أم من الزنج والسودان هم الذين قاموا بنشر الإسلام؛ بعد أن وصلت الدعوة إلى بلدانهم وإلى ما وراءها من بلدان.

[9] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ١ .

ولم تكن حركات الفتح والجهاد التي حفل بها تاريخ الإسلام في القارة خلال بعض الفترات لاسيما في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين من بعدهم ذات أثر كبير فى نشر الإسلام؛ إذ لم يكن هدفها نشر هذا الدين بقوة السلاح كما يدعى كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام، وإنما كان هدفها هو إزاحة العقبة التي كانت تحول وصول الإسلام بالحكمة والموعظة إلى أهل إفريقيا، وكانت هذه العقبة تتمثل في جيوش الاحتلال البيزنطى، التى كانت تحتل «مصر» والساحل الشمالى لإفريقيا كله قبل فتح الإسلام لهذه البلاد.

وبعد أن أنقذ المسلمون أهالى القارة من هذا الاحتلال البغيض، أصبح الطريق مفتوحا أمام الدعوة، ومن ثم تلقفها الأفارقة بشغف وحب شديدين، واتخذت الدعوة إلى هؤلاء الأفارقة أشكالا متعددة وعلى يد أناس مختلفى الصفات والاتجاهات، منهم الدعاة الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل العظيم، ومنهم التجار الذين جمعوا بين الدعوة والتجارة، ومنهم الحجاج الذين تأثروا بمظاهر الأخوة الإسلامية فى موسم الحج وأثروا فى إخوانهم وأهاليهم بعد أن عادوا من الحج مشحونين بشحنة دينية عميقة ([10]) .

ومنهم المهاجرون الذين أتوا فى هجرات عديدة شملت العرب وغيرهم، وحملوا معهم الإسلام والثقافة الإسلامية، ومنهم الصوفية الذين اخترقوا أعماق القارة ووصلوا إلى النجوع والكفور والقرى والغابات، وسوف نفصل الحديث عن هذه الوسائل التى انتشر الإسلام بها في القارة الإفريقية جنوب الصحراء)

[10] رجب محمد عبد الحليم المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ٣.

الدعاة:

ويقصد بالدعاة الأفراد المسلمون الذين تلقوا قدرًا من العلوم الدينية، وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء والمشايخ والقراء والقضاة، وكان هؤلاء يسمون فى مختلف أنحاء القارة بأسماء مختلفة، مثل المرابط، وألفا، والمعلم والفقيه، والشيخ وسيدنا ومولانا.

وكانوا يحظون بنصيب كبير من الاحترام والتقدير، وكانت كل قرية في إفريقيا تقيم دارًا لاستقبالهم واستضافتهم، وكان الحكام والملوك الأفارقة سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين يعاملونهم باحترام كبير، وكانوا يتخذون منهم مستشارين ووزراء يصرفون لهم أمور الدولة، مثلما كان الحال فى دولة «غانة» الوثنية، كما يقول «البكرى» الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى وكان هؤلاء الدعاة ينشئون الكتاتيب لتعليم الأطفال الوثنيين القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى، ومن ثم يصبح هؤلاء الأطفال بذرة إسلامية داخل الأسر الوثنية، وكذلك كان الدعاة ينشئون المدارس التى كانت تعد مركزا مهما لنشر الإسلام وثقافته، وكذلك المساجد والزوايا والأربطة والخلاوى التى كان يلتقى فيها الأفارقة بالدعاة ويتلقون عنهم العلوم الدينية؛ حيث يخرجون دعاة للإسلام بين أهليهم وأقاربهم من الوثنيين ([11]). ولذلك انتشر الإسلام بين الأفارقة، خاصة بعد أن اعتنقه بعض ملوكهم الذين كانوا يتحولون تلقائيا إلى دعاة للإسلام في بلادهم.

ومن هؤلاء ملك «مالي» وملك «التكرور » وملك «سلى»، فقد نشر هؤلاء الإسلام بين شعوبهم من التكرور والسونتك والماندنجو وغيرهم من شعوب غرب القارة. وخرج من هذه الشعوب دعاة تخصصوا في الدعوة إلى الإسلام حتى أصبحت كلمة تكرورى أو سوننكى تعنى داعية للإسلام عند شعوب هذه المنطقة.

[11] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ٣.

ومن أهم الدعاة الذين نشروا الإسلام بين البربر في الصحراء الكبرى» والتكرور في «السنغال» والسوننك في «غانة»، الشيخ «عبدالله بن ياسين الجزولى» المتوفى عام (٤٥١هـ = (١٠٥٩م، والذى قامت على يديه «دولة المرابطين الكبرى قبل ذلك ببضع سنين.

وهناك داعية آخر قام بنشاط كبير فى حوض نهر النيجر الأعلى» هو «أبو القاسم على بن يخلف»، الذى أسلم على يديه ملك مالى الذي اتخذ لقب المسلمانى (أى) الذي أسلم، بعد إسلامه في القرن الحادي عشر للميلاد، وفى بلاد «الهوسا » نجد داعية إسلاميا كبيرًا هو الشيخ «محمد عبدالكريم المغيلى» المتوفَّى عام (٩٠٩هـ = ١٥٠٣م الذى نشر الإسلام في بلاد «الهوسا»، ثم أتى بعده بعدة قرون داعية كبير من شعب الفولاني هو الشيخ عثمان بن فودى» الذي أتم حركة نشر الإسلام في هذه البلاد، وخاصة نيجيريا» و «الكاميرون».

وإذا اتجهنا شرقًا ووصلنا إلى بلاد حوض بحيرة تشاد » حيث دولة الكانم والبرنو» نجد داعية إسلاميا عظيمًا هو الشيخ محمد بن مانى» الذى أسلم على يديه ملوك هذه البلاد في القرن الحادي عشر للميلاد.

وكذلك دخل الإسلام كثير من النوبيين وأهالى «السودان النيلي» و «دارفور» على يد دعاة وفدوا من «مصر» و «اليمن» و «الحجاز» من أمثال غلام الله بن عائذ اليمني»، و «حمد أبي دنانة» من «الحجاز»، والشيخ «محمد القناوى الأزهرى» من «مصر»، وتلقف الدعوة وأذاعها سودانيون من أمثال الشيخ محمود العركي والشيخ صغيرون محمد بن سرحان العدوى» وغيرهم.([12]).

[12] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء ، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ٤ .

ووفد على منطقة القرن الإفريقى وساحل شرقى إفريقيا عدد كبير من الدعاة، من أمثال «ود بن هشام المخزومي» الذى أقبل إلى بلاد الحبشة» في عهد «عمر بن الخطاب – رضى الله عنه وأنشأ أحفاده دولة إسلامية فى إقليم شوا» وسط هضبة الحبشة، كذلك وفد دعاة من «بنى عبدالدار أو من «بنى عقيل بن أبي طالب إلى بلاد «الزيلع» و «الصومال» و «إريتريا» وأنشأ أحفادهم سلطنة إسلامية أخرى فى هذه البلاد تسمى «سلطنة أوفات الإسلامية».

وهكذا كان للدعاة فضل كبير فى نشر الإسلام وثقافته، وفى إقامة سلطنات إسلامية في كثير من نواحى القارة، كما سنرى ذلك في حينه بالتفصيل.

التجار:

كان للتجار الدور الأول فى نشر الإسلام فى القارة بعد الدعاة، ويظهر ذلك من قول السير «توماس أرنولد» فى كتابه الدعوة إلى الإسلام» إن التجارة والدعوة إلى الإسلام مرتبطان كل الارتباط.

وقد تدفق الإسلام عبر الطرق التجارية الموصلة بين مختلف أنحاء القارة، والتي أشرنا إليها من قبل، إلى حوض نهرى «السنغال» و «النيجر » ومنطقة حوض بحيرة تشاد»، وكذلك إلى «الصومال» و «بلاد النوبة» و «السودان» و «الحبشة »، و «ساحل شرق إفريقيا».

وقد قام العرب والبربر بدور كبير فى هذا النشاط التجارى، وأصبحت مدن الشمال الإفريقي مراكز للتجارة بجانب كونها مراكز للعلم والثقافة، ووصلت إليها السلع الإفريقية، واتجه تجار العرب والبربر واخترقوا الصحراء الكبرى ووصلوا إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وكان لذلك أثره الكبير في نشر الإسلام الذى أقبل مع قوافل التجار، وازداد انتشاره بعد أن انتقل معظم النشاط التجارى وإلى أيدى السودان والزنوج أنفسهم من تجار «الفولاني» و «التكرور» و «الهوسا» «الكائمية» والصوماليين وغيرهم من الأفارقة الذين اتخذوا التجارة حرفة رئيسية، وصار هؤلاء

التجار الأفارقة دعاة للإسلام، وقلدوا المغاربة في إقامة بعض الأسواق في مدن معينة في أيام معلومة.

وكان هؤلاء التجار سواء كانوا من العرب أو البربر أو السودان ينزلون فى هذه الأسواق أو في المراكز التجارية ويحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى القائم على قيم الإسلام وتقاليده السامية، وغالبًا ما ينتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج في الإسلام الذى كان يتركز أولا فى المدن التي ينشط فيها التجار بوجه خاص، وكانوا إذا ما استقر بهم المقام في إحدى هذه المدن ينشئون كتاتيب أو مدارس لتعليم الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم ويبنون المساجد التي كانت مقرا للدعوة إلى الإسلام، وقاموا فى الوقت نفسه بمزاولة نشاطهم التجارى، وكانوا أثناء الليل يحولون دكاكينهم إلى مكان يتلقى فيه الأطفال الوثنيون مبادئ القراءة والكتابة على ضوء النيران، مما حبيبهم إلى الأهالى الذين وثقوا بهم، مما فتح الباب أمام الإسلام كي ينتشر بينهم (١٣[13]).

وكذلك وثق بهم رجال الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء ومشايخ القبائل؛ حيث كان التجار المسلمون يُستقبلون فى بلاط هؤلاء الملوك الوثنيين بترحاب شديد؛ لسمو أخلاقهم وكريم خصالهم وخبرتهم بالسياسة وشئون الإدارة والمال، ونظرًا لأنهم كانوا يجلبون لهذه الطبقة ما كانت تحتاج إليه من سلع ،فاخرة، ومن ثم أضفى هؤلاء الملوك حمايتهم على هؤلاء التجار، فنعموا بالأمان والاستقرار وازداد نشاطهم بين أفراد هذه الطبقة التي سرعان ما تحولت إلى الإسلام في عدد كبير من البلدان.

---

[13] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص 5 .

ومن أهم المراكز التجارية التى أنشأها العرب أو أهالى البلاد المحليون واتخذوا منها مراكز للتجارة والدعوة: مدينة أودغشت» فى «موريتانيا» الحالية، ومدينة «تمبكت» التي بناها المرابطون من المغاربة على ضفة نهر النيجر » أواخر القرن الخامس الهجرى، كذلك كانت مدن: «كانو»، و «مالى» و «جاد»، و «نجيمى» فى غرب القارة مراكز للدعوة والتجارة وكانت مدينة «عيذاب» التي تقع على ساحل البحر الأحمر»، ومدينة «قوص » التى تقع على نهر النيل» في صعيد «مصر» مراكز انطلق منها تجار الكارم إلى الحبشة» وشرق إفريقيا، كما انطلقوا من موانئ: سواكن» و «باضع» (مصوع) و «زيلع» و «بربرة» و «مقديشيو» و «ممبسة» و «مالندى» و «كلوة» و «سوفالة»، وكلها موانئ تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر وعلى الساحل الشرقي لإفريقيا، ونشط التجار فى هذه المراكز التجارية كلها ووصل نشاطهم إلى أعماق القارة في بلاد «أوغندا» و «الكونغو»، وأسلم على أيديهم أعداد كبيرة من الأفارقة ([14]) .

وكانت قوافل الجمال التى تحمل تجارة القارة لا تستطيع العودة من هذه المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية في موسم الأمطار، فكان التجار ينتظرون الشهر أو الشهور يتاجرون ويحتكون بالأهالي؛ مما كان يؤدى إلى إسلام الكثير منهم ، ثم يعودون من حيث أتوا حينما تتحسن الأحوال الجوية، هذا في الوقت الذى أصبح التجار المحليون المقيمون دائمًا في بلدان القارة عُمُدًا للدعوة الإسلامية.

- الحجاج:

نتيجة للنشاط التجارى الواسع الذى أشرنا إليه والذي ساد شمال القارة، ووسطها وغربها وشرقها وما نتج عنه من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية؛ نشطت قوافل

[14] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء ، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ٦ .

الحج التي كانت في الوقت نفسه قوافل للتجارة التى كان يمارسها الحجاج على طول طريقهم إلى الأراضي المقدسة وقوافل لتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التي يمرون بها، فكانت تخرج من غرب القارة قوافل عديدة على رأسها ملوك هذه البلدان، الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق ومتاعب، نظرًا لطول الطريق ومخاطره ووعورته، لكنهم كانوا يخرجون في رحلة قد تستغرق عامًا أو عامين ويلتقون فى موسم الحج بإخوانهم المسلمين على اختلاف بلادهم وألسنتهم وألوانهم ، فيشعرون جميعًا بالأخوة الإسلامية، ويشعر الإفريقي بانتمائه إلى عالم إسلامى واسع وبأخوته لمسلمى ذلك العالم، فتتحطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية، ويصبح الجميع شعبًا واحدًا يتكلمون بعبارات واحدة، ويتجهون إلى قبلة واحدة ([15]).

ومن ثم أصبح خروج المسلمين من غرب إفريقيا ووسطها وشرقها جماعات وفرادى إلى الحج، واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة تأكيدًا لروح الأخوة الإسلامية التى فرضها الإسلام، فيعود هؤلاء الأفارقة ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين، وَوَقَّف جهودهم على إعلاء شأنه فى بلادهم وما جاورهم من البلاد الوثنية، خاصة أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم الأفارقة وثقافتهم كما كانوا يعودون أحيانًا مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة، مما كان له أثره في نشر الإسلام، لاسيما وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر الإسلام بين الوثنيين، ونشر عقائده الصحيحة بين المسلمين الأفارقة.

---

[15] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ٧ .

وكان المسلمون الجدد من هؤلاء الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم من الذين أدوا هذه الفريضة، فيقدمونهم الآخرون عليها، ولذلك تعددت قوافل الحج التي كانت تخرج من هذه البلدان، والتى كانت تضم آلافًا مؤلفة وعلى رأسها الملوك والحكام في أحيان كثيرة.

ومن أشهر الملوك الذين أدوا هذه الفريضة من حكام إفريقيا منسا موسى» سلطان «مالى الإسلامية»، الذى خرج إلى الحج من هذا المكان النائى فى غرب القارة على رأس موكب كبير تحدث عنه المؤرخون، وذلك فى عام (٧٢٣هـ = ١٣٢٣م إذ كان موكبه يضم أكثر من عشرة آلاف حاج، وكان يحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام أهدى منه إلى سلطان «مصر» وأمرائها وموظفيها، كما أفاض منه على فقراء «مكة» و «المدينة»، ومَنَحَ عن سعة حتى قيل إن قيمة الذهب انخفضت في مصر » انخفاضا ملحوظًا لكثرة ما أنفقه فيها ([16]) .

وكان

كذلك تحدثنا المصادر بأن ملوك سلطنة صنغى الإسلامية» التي خلفت سلطنة «مالي» في غرب إفريقيا قاموا بأداء هذه الفريضة، ومن أشهرهم السلطان أسكيا محمد الأول» في عام (٤٩٥هـ = ١١٠١م)، وقد أدى بعض سلاطين «الكانم» و «البرنو» الذين كانت دولتهم تقوم حول «بحيرة تشاد الحج ثلاث مرات، وبعضهم تُوفَّى أثناء الذهاب أو العودة ودفن في «مصر». حكام بلاد «السودان النيلى»، و «الصومال» و «الحبشة» وشرق إفريقيا بصفة عامة يؤدون هذه الفريضة فى سهولة ويسر، نظرًا لقربهم من بلاد الحجاز»، وكانوا يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم في شمال إفريقيا وغربها ، حتى السلاطين أنفسهم؛

[16] رجب محمد عبد الحليم المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩، ص ٧ .

مما يدل على أهمية هذه الشعيرة لديهم، وعلى أن تأثيرها فى نفوسهم كان قويا ، ولذلك كانوا يعودون من الرحلة ممتلئين حماسة للإسلام ولنشره بين من لم يعتنقه من الوثنيين فى بلادهم وقراهم ([17]) .

[17] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص8.

٤ – الهجرات :

كان لتحركات القبائل وهجراتها سواء أكانت عربية أم بربرية أم سودانية وزنجية دور كبير في نشر الإسلام وثقافته، واللغة العربية وثقافتها في القارة الإفريقية. ومن أهم هذه الهجرات هجرات العرب إلى بلدان القارة المختلفة، وكانت «مصر» هي القاعدة والمنطلق الذي انطلقت منه هذه الهجرات العربية غربا إلى شمال إفريقيا، وبلاد «النوبة» و «السودان»، فقد هاجرت جماعات عربية من «ربيعة » و «جهينة» و «بلى» إلى «أرض البجة» منذ منتصف القرن السابع للميلاد، ونجحوا فى نشر الإسلام بين الأهالي، ودفعت شهرة «وادى العلاقي» الذي يقع في الصحراء الشرقية بين «أسوان» و «البحر الأحمر» بالذهب والزمرد إلى جذب جماعات كبيرة من «ربيعة » و «جهينة» منذ عام ٢٣٨هـ) = ٨٥٢م) إلى هذه المنطقة، حيث استقر العرب هناك وتزاوجوا مع «البجة» وأقاموا إمارة عربية مدت نفوذها إلى «أسوان» وشمال بلاد النوبة»؛ حيث صاهروا حكام مملكة «مَقُرة» النوبية المسيحية، ونتج عن ذلك انتقال الحكم إلى هؤلاء العرب من الذين عرفوا باسم «بنى كنز» نسبة إلى لقب كان قد أطلقه أحد الخلفاء الفاطميين فى «مصر» على أحد أمرائهم نظير مساعدته لهذا الخليفة في القضاء على أحد الثائرين والخارجين على دولته فى صعيد «مصر». وتطورت أحوال «بنى كنز» هؤلاء حتى استطاعوا أن يقيموا دولة «بنى كنز» العربية في بلاد النوبة» واتخذوا «دنقلة» عاصمة لهم منذ عام (٧٢٣هـ – ١٣٢٣م) ([18]).

وبقيام هذه الدولة انفتح باب الهجرة العربية على مصراعيه، فهاجرت قبائل عربية كثيرة إلى وسط «السودان»، وأقاموا بين نهرى النيل الأبيض» و «الأزرق»، وتحالفوا مع قبائل سودانية تسمى «الفونج»، واستطاعوا أن ينشئوا معًا دولة إسلامية أخرى

[18]) رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء ، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ٩ .

هى دولة «الفونج» التي كانت عاصمتها «سنار»، وذلك عام (٩١١هـ ١٥٠٥م). كذلك هاجرت قبائل عربية كثيرة من «مصر» إلى مملكة «دارفور» الوثنية منذ القرن الحادى عشر للميلاد، ووفدت إلى هذه المملكة هجرات عربية أخرى من «تونس» و «شمال إفريقيا»، واختلط هؤلاء المهاجرون بالأهالى وصاهروا ملوك «دارفور»، ونتج عن هذه المصاهرة انتقال الحكم إليهم، فأصبحت «دارفور» سلطنة عربية إسلامية منذ عام (٨٤٩هـ = ١٤٤٥م) . كذلك تواصلت الهجرات العربية إلى بلاد «الزيلع» و «الحبشة»، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم منطقة القرن الإفريقى.

ومنها هجرة ود بن هشام المخزومي» في عصر عمر بن الخطاب» – رضى الله عنه وقد تبع ذلك هجرات عربية استقرت على طول ساحل هذه المنطقة، وأقامت في المدن الساحلية التجارية، مثل «سواكن» و «باضع» (مصوع) و «زيلع» و «بربرة»، وانطلقت إلى الداخل وسكنت الأهالي واشتغلت بالتجارة والزراعة والرعى، وازداد عددها حينًا بعد حين حتى تمكنت من إقامة

سلطنات إسلامية، مثل «سلطنة شوا» و «سلطنة» أوفات» و «سلطنة عدل» الإسلامية.

مع

وقد ازدادت هجرات العرب على ساحل شرق إفريقيا وأنشئوا مراكز تجارية بطول هذا الساحل، حتى قال بعض المؤرخين إنهم أنشئوا ستا وثلاثين مدينة، بدءًا من «مقديشيو» في «الصومال» وحتى «سوفالة » جنوب نهر «الزمبيزى» فى «موزمبيق » ([19]).

[19] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ١٠.

ومن أشهر هذه الهجرات هجرة «سليمان» و «سعيد» ابنى عباد بن عبد بن الجلندى»، وكانا ملكين في «عُمان»، واضطرتهما ظروف القتال مع الحجاج بن يوسف الثقفى»، الذي أراد أن يفرض نفوذه على «عمان» بالقوة المسلحة إلى ترك وطنهما والاتجاه في سفن إلى ساحل شرق إفريقيا؛ حيث وصلا ومن معهما من رجال وجند وأهالى إلى جزر «أرخبيل لامو» التي تقع في دولة «كينيا» الآن، وذلك في الفترة ٧٥) ٨٥هـ ٦٩٤ – ٧٠٤م) ، واستقروا هناك وأنشئوا إمارة صغيرة كان لها أثرها فى نشر الإسلام بين الأهالى الموجودين في تلك المنطقة.

كذلك هاجر بعض الشيعة الزيدية إثر مقتل إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب» – رضى الله عنهم أجمعين – فى عام (١٢٢هـ = ٧٤١م على يد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك»، فاضطر أتباعه بعد مقتله إلى الهجرة خوفًا من اضطهاد الحكام لهم، فوصلوا إلى ساحل «بنادر» بالصومال، وأقاموا هناك نحو مائتي عام أرسوا فيها قواعد الإسلام والثقافة الإسلامية بين الصوماليين.

ولم تلبث أن وفدت هجرة أخرى إلى هذا المكان نفسه تعرف باسم هجرة الإخوة السبعة، جاءت من «الأحساء» في عام ٢٩٢هـ) = ٩٠٤م ووصلت إلى ساحل «بنادر» بالصومال، بعد أن ضاق بهم المقام فى منطقة الخليج؛ نتيجة لصراعات سياسية ومذهبية ، وكان هؤلاء الإخوة من قبيلة «الحارث» العربية، ولما وصلوا إلى هذا الساحل استطاعوا أن يطردوا الزيدية إلى الداخل. وأن ينشئوا مدينة «مقديشيو » فى عام (٢٩٥هـ – (٩٠٧م ويتخذوها عاصمة لدولتهم التي أقاموها هناك، والتى كانت تعرف باسم سلطنة مقديشيو الإسلامية» ([20]) .

[20] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء ، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ١١ .

وبذلك ظهر إلى الوجود مركز إسلامي كبير كان له أثره القوى في نشر الإسلام لا بين الصوماليين فحسب، بل بين كثير من سكان شرق إفريقيا كله.

وقد أعقب تلك الهجرة هجرة شيرازية فارسية أتت من «شيراز » بإيران، كان على رأسها أمير يدعى «على بن حسن بن على الشيرازي»، وذلك فى عام (٣٦٥هـ = ٩٧٥م نتيجة خلافات وقعت بينه وبين إخوته فى «شيراز»، اضطرته إلى الهجرة هو وأتباعه ورجاله في سبع سفن ضخمة إلى شرق إفريقيا ؛ حيث استقر بهم المقام فى جزيرة «كلوة» التى تتبع دولة «تنزانيا» الآن، واستطاع أن يؤسس سلطنة إسلامية تسمى «كلوة»، ظل يحكمها هو وأحفاده نحو قرنين من الزمان حتى أتت هجرة عربية أخرى من «اليمن» من «بنى الحسن بن طالوت المهدلى»، وحكمت هذه السلطنة، ومن ثم تغلبت الصبغة العربية فيها على الصبغة الشيرازية الفارسية واستمرت هذه السلطنة قائمة حتى جاء البرتغاليون وتغلبوا عليها في عام (٩١١هـ = ١٥٠٥م).

ونتيجة لهذه الهجرات العربية المتتابعة انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين في منطقة القرن الإفريقي»، وفى منطقة الساحل الشرقى لإفريقيا، وكذلك فى الجزر المواجهة لهذا الساحل، مثل «جزيرة زنجبار »، و «جزر القمر»، و «جزيرة مدغشقر مالاجاش (الآن) وغيرها من الجزر، وتكون عالم إسلامى واضح المعالم والقسمات، نشأت فيه دول وسلطنات إسلامية ظلت موجودة حتى اصطدمت بالبرتغاليين والأحباش ، ثم بالاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث ([21]).

كذلك خرجت هجرات عربية من «مصر» فى اتجاه الغرب إلى بلاد المغرب العربي منذ عصر الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول للهجرة، وظلت هذه الهجرات تتتابع حتى القرن الخامس للهجرة؛ حيث نزح من «مصر» إلى هناك بنو هلال» و «بنو

[21] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ١٢ .

سليم»، ولاشك أن الحكم العربي الإسلامي لهذه البلاد بالإضافة إلى هذه الهجرات قد أديا فى النهاية إلى تعريب أهل البلاد الأصليين، فانتشرت بينهم اللغة العربية وأصبحت لسانهم، وغدت هذه البلاد بلدانا عربية إسلامية، وقد انطلقت من هذه البلاد هجرات عربية لكنها كانت قليلة العدد قليلة الأفراد، اتجهت جنوبا إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى حوض نهر السنغال» و «النيجر»، وحوض «بحيرة تشاد» مثل بنى جذام» و «بنى «حسان» و «بنى معقل» و «أولاد سليمان» و «جهينة» وغيرهم، واستقرت هذه القبائل هناك ولاتزال توجد إلى الآن بعض هذه القبائل التي تحتفظ بأصولها العربية، ولكن نظرًا لقلة هذه الهجرات وقلة عدد أفرادها فإنها لم تؤد إلى انتشار اللغة العربية بين الأهالي هناك، وكانت لغة العلم والتعليم والتجارة والوثائق الرسمية للدولة فقط، ولما جاء الاستعمار الأوربي إلى هذه البلاد حارب هذه اللغة وحارب الإسلام بكل ما يستطيع من قوة، ولايزال يحاربه رغم الاستقلال.

وإذا كان العرب قد هاجروا إلى البلدان الإفريقية فى مختلف أنحاء القارة، وكان لهم أثرهم الكبير في نشر الإسلام ولغته وثقافته، وكذلك في إقامة سلطنات إسلامية، فقد كان لهجرات البربر أثر كبير أيضًا في هذه الميادين، وخاصة بربر صنهاجة»، الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى واستطاعوا نتيجة لجهود داعية عظيم أشرنا إليه وهو الشيخ «عبد الله بن ياسين الجزولي» أن يقيموا «دولة المرابطين» منذ عام ٤٤٨هـ – ١٠٥٦م ، وأن يضموا إليها «بلاد المغرب الأقصى» و «بلاد الأندلس»، ثم «مملكة غانة الوثنية، وانطلق دعاتهم بين أهالى «غانة» و «السودان الغربي» ينشرون الإسلام ، كذلك وفد كثير من قبائل البربر الأخرى إلى هذه البلاد مهاجرين إليها، واستقروا فيها وأنشئوا المدن والمراكز التجارية مثل مدينة «أودغشت» ومدينة «تمبكت» وغيرهما ([22]).

[22] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ١٣ .

كما هاجرت قبائل من البربر منذ ما قبل الإسلام إلى حوض بحيرة تشاد» وأقامت دولة تسمى «دولة الكانم والبرنو » ، ولم يلبث ملوك هذه الدولة أن اعتنقوا الإسلام في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد، وظلوا يحكمون هذه البلاد وينشرون الإسلام فيها حتى القرن التاسع عشر .

كذلك كان لهجرات النوبيين والصوماليين والجلا والأعفار والزنوج أثر كبير فى نشر الإسلام في منطقة «القرن الإفريقي»، وفى ساحل شرق إفريقيا»، وكانت هذه الهجرات وراء توسع السلطنات الإسلامية التى قامت في هذه المنطقة، وساعدتها في رد عدوان الأحباش على المسلمين في منطقة القرن الإفريقي» وخاصة في القرن السادس عشر الميلادي.

هـ – الطرق الصوفية

ارتبط نشاط الدعوة إلى الإسلام لاسيما في غرب إفريقيا وشرقها بانتشار الطرق الصوفية، وخاصة بين المشتغلين بالتجارة، وكانت هذه الطرق قد بزغ نجمها فى الأفق منذ أن تعرض العالم الإسلامي لخطر الإستعمار الأوروبى الحديث بدءًا من القرن السادس عشر الميلادي، واستطاعت الطرق الصوفية أن تُسهم إسهامًا كبيرًا فى الدعوة إلى مقاومة الاستعمار ، وكذلك في الدعوة إلى الوحدة الدينية، وفى نشر الإسلام بين من لم يعتنقه، ونتيجة لذلك جذبت هذه الطرق إليها كثيرًا من الشباب الأفارقة ([23]).

ففي شرق إفريقيا وبلاد سودان وادى النيل ظهرت الطريقة الميرغنية» في القرن التاسع عشر للميلاد والتى كان لها تأثيرها الكبير على الناس هناك، وكانت قد ظهرت قبلها بعدة قرون «الطريقة القادرية والشاذلية والرفاعية»، وانتشر أتباع هذه

[23] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء ، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩ ص ١٣.

الطرق على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، وفى الجزر المواجهة له وكذلك فى المناطق الداخلية.

فكان لأتباع «الطريقة القادرية» التى انتشرت في شمال إفريقيا وغربها أثر كبير في نشر الإسلام في هذه البلاد، فقد اتخذ أتباعها من مدينة «ولاتة» بموريتانيا أول مركز لهم في تلك البلاد منذ القرن الخامس عشر الميلادى ثم لجئوا إلى «تمبكت»، وانتشر أتباعهم ودعاتهم في أنحاء «السودان الغربي»، وكذلك في منطقة «القرن الإفريقى وساحل شرق إفريقيا»، ووصل أتباعها في الداخل حتى «الكونغو »، وكان أتباع هذه الطريقة يقومون بتأسيس المدارس لتعليم الدين ونشر الإسلام، ويرسلون نوابغ الطلاب إلى مدارس «القيروان» و «تونس» و «فاس» و «الأزهر»، وغيرها، فإذا ما أتموا دراستهم عادوا إلى أوطانهم دعاة للإسلام ([24])

٦ – طبيعة الإسلام

ذلك أن الإسلام لم يُفرض كما رأينا على الشعوب الوثنية الإفريقية فرضا، إنما حمله قوم من أهل إفريقيا نفسها، اتخذوا صفة التجار أو المعلمين أو الدعاة أو الصوفية، فليس غريبا أن يلقى قبولا منهم، فهو في نظرهم دين إفريقى غير دخيل، والدعوة إليه تتم بالطرق السلمية وليس بالغزو المسلح كما فعل الاستعمار الأوربي في العصر الحديث.

كما أن الإسلام لم يستعبد هذه الشعوب، إنما أشعرها بالعزة والكرامة، فخلق منها دولا كبرى وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال، ولم يقض على نظمها المحلية بل تواءم معها وخلق منها ومن تقاليده تقاليد إسلامية الطابع إفريقية الروح.

ومن ثم تقبله الأفارقة، خاصة أن الإسلام لم يكن دينًا أخرويا فحسب، وإنما كان دينا وحضارة تقوم على أساس تعمير الدنيا والفوز بالآخرة، ومن ثم لزم أن ينشر الإسلام

[24] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص14.

نور العلم والثقافة بين أتباعه ومعتنقيه، فارتبط الإسلام بالعلم والتعليم منذ البداية، وكان الإفريقي لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعيا كلما زادت ثقافته، ولذلك سمعنا عن عدد العلماء الأفارقة الذين ظهروا في مختلف ميادين العلم والثقافة، ولم يكونوا في ذلك أقل كبير من من إخوانهم علماء المغاربة أو المشارقة.

زد على ذلك أن الإسلام لم يعترف بالتفرقة العنصرية، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللون، ولا يميز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الثروة، لأن معيار التفاضل في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، ولذلك أقبل الأفارقة على اعتناقه، فوحد بينهم وقضى على عناصر الفرقة والتشرذم ، كما وحد بينهم لغويا؛ إذ انتشرت اللغة العربية بين كثير من شعوب القارة، وصارت هي أداة الفكر والعلم والمخاطبة، أما الشعوب التى احتفظت بلغاتها، فقد كانت العربية هى وسيلة العلم والتعامل كما كانت اللغة الرسمية لأن اللغات الإفريقية لم تكن لغات مكتوبة ([25]).

وكما وحد الإسلام بينهم دينيا وحد بينهم سياسيا وقضى على التشرذم القبلى والنزاعات القبلية، وأنشأ دولا كبرى، بل إمبراطوريات عظمى مثل «إمبراطورية مالي»، التي ضمت معظم منطقة غرب إفريقيا بالكامل، وكانت مساحتها تفوق مساحة دول غرب أوربا مجتمعة، ليس هذا فحسب بل إن الإسلام جعل الإفريقى يشعر بانتمائه ليس إلى بلاده فقط بل إلى عالم إسلامي واسع يستطيع أن ينتقل بين أرجائه سواء كان تاجرًا أو حاجا أو طالب علم ، وفى كل مكان يجد هذا الإفريقى القوت والمأوى والمساعدة والاستقبال الودود على أساس من أخوة الإسلام التي جمعت بين أفراد هذا العالم الإسلامى الواسع، الذي يمتد من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غربا، ومن هنا اعتبر الأفارقة الإسلام دينًا إفريقيا قام بنشره بينهم

[25] رجب محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ١٦ .

قوم منهم ، اتخذوا الدعوة أو التجارة أو التصوف وسيلة إلى ذلك، وطبقوا مبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه الحميدة وقيمه السامية من إخاء ومساواة وتكافل وتعاون، ومن ثم انتشر الإسلام فى هذه البقاع الواسعة فى القارة، حتى إنه يمكن القول بأن قارة إفريقيا هى القارة المسلمة الوحيدة في عالم اليوم، على اعتبار أن غالبية سكانها يعتنقون الإسلام ([26]).

[26] محمد عبد الحليم : المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٩ ص ١٦ .

علاقات مصر بدول شمال أفريقيا (عهد الدولة الحفصية والدولة المرينية):

العلاقات السياسيةوالحضارية.

كان لدولة المماليك علاقات خارجية مع عدد كبير من الدول ، وتعد دولة بني حفص في تونس واحدة من هذه الدول وكانت مشكلة الخلافة سببا من اسباب فتور العلاقات لفترة ما بين دولة المماليك في مصر ودولة بني حفص في المغرب الأدنى([27]) ذلك ان ملوك الدولة الحفصية لم يطلبوا من الخليفة العباسي المستعصم بالله(٦٤٠_ ٦٥٦هـ) تفويضا بالحكم مثل غيرهم من معظم الحكام المسلمين مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم، ولم يلبث أن ظهر ذلك الشيء عندما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي (٦٤٧- ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٧م) ([28]) لقب الخلافة وتلقب بـ(المستنصر بالله (سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٣م) ([29]) وجاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)

وقد وصلت بيعة اشراف مكة من انشاء الشيخ محمد عبد الحق بن سبعين وكان الواصل بها المحدث أبو محمد، وقرأت البيعة على منبر جامع الزيتونة ، وبذلك ظهرت خلافة قوية في المغرب الأدنى عاصمتها تونس وبسطت نفوذها على بلاد المغرب والأندلس والحجاز ([30])

---

[27] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ٧، ص ٣٢ ؛ الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٦ ؛ عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام ، ص ٢٠٢ ؛ انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية الدولة المماليك مع بلاد المغرب) ٦٦٠ – ٩٢٣ هـ / ١٢٦٢ – ١٥١٦م ، دكتوراه مخطوطة بالجامعة المستنصرية٢٠٠٧م، ص ٥٧.

[28] ابن خلدون ، العبر ، ج ١، ص ٢٦٢ ؛ ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٧ ابن الشماع ، الادلة البيئة ، ص ٦٢ .

[29] الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٦ ؛ ابن الضياف ، اتحاف اهل الزمان ، ص ٥٢

[30] النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ص ١٨؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٥٢ ، ص ١٢٩

ولما أحس الظاهر بيبرس بخطورة أهداف الخلافة الحفصية عمل على احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) ([31]) حيث استدعى أحد ابناء البيت العباسي الفارين من المغول وبايعه بالخلافة ولقبه بـ(المستنصر بالله ([32])

وهذا يمثل عدم اعتراف دولة المماليك بشرعية خلافة الحفصيين لأن هذا اللقب هو نفسه الذي اتخذه الخليفة الحفصي ومن ثم، بدأت يظهر شكل من أشكال الصراع بين دولة المماليك وبين دولة بني حفص في تونس ، وقد حاولت دولة المماليك ان تقلل من شأن خلافة الحفصيين كلما سنحت الفرصة لذلك ، فبالرغم من مساعدة الظاهر بيبرس للامير الحفصي في الدفاع عن تونس ضد حملة لويس التاسع عليها

ثم يظهر شكل آخر من أشكال المنافسة بين الدولتين ، حيث بدأت يطفو على الساحة التدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بدولة المماليك.

ففي عهد المنصور قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩هـ / ١٢٨٠ – ١٢٩٠م) وجد عدد من العناصر التي كانت تابعة للدولة الحفصية وتدين بولائها لها ان تتجه نحو دولة المماليك وتعلن ولائها لها . ولاسيما بعد أن عصفت الخلافات بالدولة الحفصية واشتدت المنافسة بين الامراء حول السلطة . ([33])

(٣) انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب) ٦٦٠ – ٩٢٣ هـ / ١٢٦٢ –

---

[31] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢، ص ١٨٧

[32] العبادي ، احمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ١٦٠ ؛ الجمل ، شوقي ، المغرب العربي الكبير ، ص ٣٥ ؛ الصلالي ، دولة الموحدين ، ص ١٥٦ ؛ انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب) ٦٦٠ – ٩٢٣ هـ / ١٢٦٢ – ١٥١٦م ، ص ٥٨.

[33] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩٥ . (٢) البرغوثي، تاريخ ليبيا من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر العثماني ، ص ٣٨٥ ؛ عباس ، احسان ، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي ، مطابع دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٧م ص ١٩٢.

١٥١٦م)، دكتوراه مخطوطة بالجامعة المستنصرية، ٢٠٠٧م، ص ٥٧ .

و من ابرز هؤلاء مرغم بن صابر الذبابي شيخ قبيلة المراغمة من الجواري اذ نجح في التقرب من دولة بني حفص حتى تمكن ان يستخرج منها تفويضا رسميا يمنحه ملكية قرية زنزور ([34]) عام (٦٧٦هـ/٣٢٧٨م) ([35]) .

غير أن مرغم بن صابر لم يقنع بهذا المكسب ، بل اراد ان يوسع منطقة نفوذه وسنحت له الفرصة بذلك سنة (٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ، وذلك عندما ظهر في منطقة طرابلس ثائر ضد دولة بني حفص اصطلحت المصادر على تسميته بالدعي كما ادعى انه الفضل بن المخلوع([36]) . فاتفق الشيخ مرغم مع الدعي او الفضل بن المخلوع وصار يشيع انه من ابناء المستنصر الحفصي الاول ([37])

فأراد مرغم بن صابر وحليفه الدعي (الفضل بن المخلوع (ان يضفي على حركته ضد السلطان الحفصي صفة الشرعية فتوجه إلى مصر وارسل اليها وفدا يطلبون مساعدة وتأييد السلطان المنصور قلاوون ، وقد تلقى المنصور الرسل بالحفاوة والاكرام وبذلك نجح في الحصول على مباركة السلطان قلاوون لتحركاته ونجح كذلك في استمالة الاعراب ولاسيما اعراب رباب التي ينتمي اليها مرغم .

---

[34] قرية صغيرة تقع في اعلى طرابلس الغرب ؛ ينظر : ياقوت الحموي ، ج ٣، ص ١٩٨

[35] التجاني : ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد ، (ت ٨٦٩هـ) ، رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، تونس ، ١٩٥٨م، ص ٢١٧–٢١٨

[36] هو احمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي نسبة الى مدينة المسيلة ، وكان في بداية امره طباخا ببجاية ولكنه طمح الى الملك ففارق بلده الى عرب المعقل في صحراء سجلماسة واظهر انتسابه للعلوبيين وادعى انه الفاطمي المنظر كما ادعى انه الفضل ابن الواثق ابو زكريا يحيى الثاني الذي خلع من قبل الحفصيين سنة (٦٧٨هـ / ١٢٧٥م) ، وكان للواثق ابن اسمه الفضل فيه شبه من احمد بن مرزوق الدعي ؛ ينظر : ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٤٣ – ١٤٤ ؛ ابن الضياف ، اتحاف اهل الزمان ، ص ١٦٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧١٠ .

[37] التيجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٩٨.

وبدأ الحليفان عملياتهما بحصار طرابلس ووواليها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاني الملقب عنق الذبابة غير انهما لم يستطيعوا احراز النصر لمناعة سور طرابلس ، فأنقضوا على بطون هوارة القاطنة في جهات زنزور وعلى غيرها من قبائل البربر واجبروا اهلها على دفع الاتاوات ، ثم زحفا إلى تابس التي لم يلبث عاملها عبد الملك بن مكي اذ اظهر الخضوع للدعي وبايعه .. ثم انضمت اليه عربان الكعوب في منطقة قابس واستطاع ان يتغلب على المناطق المجاورة لقابس ([38]).

وكان اكبر انتصار حققه الدعي حين امتنعت قوات الخليفة الحفصي أبو اسحاق ابراهيم (٦٧٨-٦٨١هـ) ان تقاومه بقيادة ابنه أبو فارس مما دعا الخليفة إلى الخروج لقيادة تلك القوات بنفسه ، ولم تلبث هذه القوات ان تفرقت عنه بزعامة كبير الدولة موسى بن ياسين وانظموا إلى قوات الدعي فاختل حال السلطان وهرب إلى بجابة لذلك استولى الدعي على تونس وفي اعقاب هذه الهزيمة التي مني بها الخليفة الحفصي أبو اسحاق تنازل عن الحكم لابنه ابي فارس ، فقام الاخير بتجميع جيش كبير لمحاربة الدعي غير انه لم يستطع وقتل فضلا عن اخيه وابيه ابراهيم الحفصي واحضرت رؤوسهم وعلقت على باب المنارة([39]) (احد أبواب تونس) وبذلك تم الامر للدعي أو الفضل بن المخلوع في تونس ومدنها بأسم السلطان قلاوون تشريفه وصنجقه (١).

غير ان الدعي لم يلبث أن هزم على يد أبي حفص عمر بن ابي زكريا الذي كان قد نجا بنفسه من المعركة التي قتل فيها أبو فارس وبهذا النصر رد المستنصر الثاني

---

[38] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٤ .

[39] انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٦٠ .

أبو حفص عمر بن ابي زكريا (٦٩٤٦٣هـ) للدولة الحفصية بعض هيبتها كما حاول تقوية علاقات الدولة الحفصية مع الدول المجاورة ولاسيما دولة المماليك.

اشتدت المنازعات داخل دولة بني حفص حول السلطة في اعقاب وفاة ابي حفص عمر بن ابي زكريا سنة (٦٩٤هـ / ١٢٩٥م)

فلقد انقسمت البلاد إلى معسكرين، فاصبحت تونس وما معها من افريقية بيد ابي عصيدة محمد أما بجايه وقسنطينية من المغرب الأوسط فاصبحت بيد أبي البقاء خالد بن ابي زكريا بن ابي اسحق ([40])

ولايته اربعة عشر عاما ولم يخلف ولدا ، لذلك بايع اهل تونس ابي بكر بن يحيى بن عبد ، فزحف أبو البقاء خالد صاحب بجايه على ابي بكر صاحب تونس فقبض عليه واعتقله ثم لم يلبث أن قتله بعد ذلك فعرف بابي بكر الشهيد

واستقل السلطان أبو البقاء خالد بملك تونس وبجايه وما معهما وتلقب الناصر لدين الله في هذه الاثناء وفي خضم هذه الاضطرابات التي عمت الدولة الحفصية نزل في طرابلس امير حفصي عائدا من الحج سنة (٧٠٩هـ / ١٣٠٧م) ، فوجد عدد من الطرابلسيين فيه هدفهم المنشود وهو جعل طرابلس نفسها منطلقا للهجوم لا هدفا له.

ومن الجدير بالذكر أن مدينة طرابلس سبق وان خطبت على منابرها للسلطان قلاوون من قبل . لذلك فانها ظلت تدين بنوع من ولائها لدولة المماليك ، وكان الأمير الذي نزل طرابلس أبو يحيى زكريا بن احمد بن محمد اللحياني الذي كان قد

---

[40] ولم يلبث أبو عصيدة ان توفي في ربيع الآخر سنة (٧١٩هـ/١٣٠٧م) وكانت مدة ابو عبد الله محمد ابو عصيدة بن الواثق بن المستنصر بن ابي زكريا بن عبد الواحد بويع يوم الرابع والعشرين من ذي الحجة (٦٩٤هـ وكان الواثق بن المنتصر لما قتل وبنوه كما سبق ذكره متزوجا من احدى جواريه فانجبت له محمد ابو عصيدة ونجحت في الهرب في اعقاب وفاة الواثق الى رباط المولى أبي محمد المرجاني فتربى ابو عصيدة في بيت الولي وفي يوم ولادته اطعم الفقراء عصيدة الحنطة فتلقب منذ ذلك الوقت بابي عصيدة ؛ ينظر :

ابن الضياف ، اتحاف اهل الزمان ، ص ٨٥

اقام بطرابلس حوالي سنة (٧٠٨-٧٠٧هـ) وكسب اثناء مقامه احترام الطرابلسيين هو ولا يستبعد ان يكونوا هم الذين فاتحوه في امر الدعوة لنفسه واتخاذ طرابلس مركزا له، وشجعه على ذلك ما كان يترامى اليه من اخبار الاضطراب والتنازع على السلطة بتونس ([41]) . فبايعه اهل طرابلس والاعراب ، وزاد من اقدامه ان احد المتنازعين على السلطان وهو أبو بكر شقيق أبو البقاء خالد بن ابراهيم صاحب تونس وكان عاملا لاخيه اوفد اليه رسولا متظاهرا بانه يؤيده ان شاء احتلال عاصمة الحفصيين ، وهو في الواقع غرضه ان يستعين به على التخلص من اخيه وخصمه .([42])

ولم يلبث اللحياني أن دخل تونس في رجب سنة (٧١١هـ / ١٣٠٩م) ، وتمت له البيعة العامة في المحمدية من أحواز تونس ، ولقب بالقائم بامر الله . ثم أقدم اللحياني على إسقاط اسم الخليفة الموحدي المهدي بن تومرت من الخطبة والتي اعتاد عليها الحفصيون واستبد لها باسم السلطان محمد بن قلاوون صاحب مصر وبلاد الشام.

موقف الناصر محمد بن قلاوون من حركة اللحياني ([43]).

[41] ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٨٦ .

[42] التجاني ، رحلة التجاني ، ص ٢٠٧ ؛ عباس ، احسان ، تاريخ ليبيا ، ص١٩٨ .

[43] هو محمد ابو ضربة بن ابي يحيى زكريا بن احمد بن محمد اللحياني ، بويع سنة (٧١٧هـ /١٣١٦م)؛ ينظر : ابن الضياف ، اتحاف اهل الزمان ، ص ١٧١ المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٩٤ ؛ القلقشندي ، مآثر الاناقة ، ج ٢، ص ١١١ .

كان اقدام اللحياني على اسقاط اسم الخليفة الموحدي واستبدالها باسم الناصر محمد بن قلاوون تدل على وجود علاقات ودية بين الطرفين ، كما تدل على وجود اللحياني في مصر قبل اقدامه على مهاجمة ودخول تونس.

وقد اكد ذلك القلقشندي عندما ذكر بانه في سنة (٧١١ هـ / ١٣١٠م) (خطب سلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ببلاد افريقية وحاضره تونس بواسطة أن صاحبها ابا يحيى وفد على

السلطان فقلده بلاد طرابلس الغرب ، واعطاه الاعلام والعصائب فوعد أن مهما فتح من بلاد المغرب خطب له فيه وفي هذا دليل على اطلاع الناصر محمد على حركة اللحياني بصورة مسبقة ولا يستبعد ان يكون الناصر محمد بن قلاوون قد آمده بعدد من العناصر التي شاركت في الهجوم على تونس بما ان طرابلس كانت ضمن المدن التي تدين بالولاء لدولة المماليك.

غير أن اللحياني لم يلبث أن واجهته المشاكل وذلك في أعقاب دخوله تونس ، ونشبت ضده عدد من الاضطرابات اثبتت عجزه عن ادارة دفة الحكم فارتحل إلى طرابلس واتخذها عاصمة له

وعندما استطاع ابنه أبو ضربه ان يتولى السلطة في تونس (٧١٨هـ /١٣١٨م) ، كان اللحياني عونه الوحيد في طلب المدد حين واجهته الثورات غير ان ابا ضربة لم يلبث أن هزم على يد أبو يحيى بن أبو بكر بن ابي زكريا ، وعندما وصلت اخبار هزيمة ابي ضربة إلى والده اللحياني في طرابلس ، ادرك الاخير انه لا قبل له في شيخوخته بمشاكل الحكم ومكارهه ، لذلك قرر الرحيل عن طرابلس وبعث إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بطلب منهم :-

(الاسعاف بتجريد طائفة من العسكر ليحضر معهم إلى مصر فخرج اليه الأمير طفصباي الحسامي والأمير بدر الدين بيلبك المحسني في طائفة من الاجناد واحضروه في سته اساطيل إلى الاسكندرية وذلك في سنة (٧١٩هـ/ ١٣١٣م) ((44)

وكان بصحبته اهله وحاجبه أبو زكريا بن يعقب ، فنزل بالاسكندرية عند السلطان محمد بن قلاوون الذي (عظم من مقدمه واهتز القائه ونو من مجلسه واسنى من جرابته واقطاعه إلى ان هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائه (45)

وبذلك تكون علاقات دولة المماليك بدولة بني حفص في هذه المرحلة بالذات قد امتازت بالمنافسة والتدخل في القضايا الداخلية ، حتى أن دولة المماليك ظلت تشكل مصدر قلق دائم لدولة بني حفص .

وتفتقر الكثير من المصادر إلى ذكر انباء عن سفارات او مهادات بين الدولتين ، ويبدو ان السبب في ذلك هو انشغال كلا الدولتين بمشاكلها الداخلية والخارجية فدولة بني حفص تعرضت إلى الكثير من الاضطرابات الداخلية والمنافسة حول السلطة فضلا عن تعرضها للاخطار الخارجية المتمثلة بالاحتلال المريني لتونس .

أما دولة المماليك ففي اعقاب وفاة الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) ، دخلت الدولة في مرحلة جديدة امتازت بعدم الاستقرار والتنازع على السلطة

---

44 المقريزي ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

45 ابن خلدون ، العبر ، ج ٧، ص٣٣١

اذا كانت العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة بني حفص قد امتازت بالتوتر والمنافسة ، فاننا نجد ان طبيعة هذه العلاقات قد تبدلت خلال عصر دولة المماليك البرجية) (الجراكسة ويمكن تلخيص هذه العلاقة في انها كانت في جملتها ودية اساسها تبادل الهدايا والمكاتبات الرسمية واستقبال ضيوف دولة بني حفص في دولة المماليك .(١)

ويعتبر عهد السلطان الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة (البرجية) العهد الذهبى للعلاقات بين دولة المماليك ودولة بني حفص إذ امتاز عهده بكثرة المكاتبات والسفارات المتبادلة بين الدولتين([46])

ولعل خير من مثل هذه العلاقات ابن خلدون الذي وصل إلى مصر في عصر دولة المماليك الثانية وشهد بداية قيام هذه الدولة ، ومنذ وصوله (٧٨٤هـ /١٣٨٢م) عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين دولة المماليك الثانية.

ففي سنة (٧٨٦هـ/١٣٤٨م) كانت هذه السفارة فاتحة المراسلات والسفارات بين دولة المماليك ودولة بني حفص وحدد ابن خلدون تاريخها في الخامس عشر من صفر سنة (٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) ، اذ التقى ابن خلدون بالسلطان الظاهر برقوق

وكان سبب هذه المراسلة ان الأمير الحفصي أبو العباس احمد كان قد حجب اولاد ابن خلدون في تونس ومنعهم من اللحاق به إلى مصر اغتباطا بعودة ابن خلدون إلى تونس لذلك طلب ابن خلدون من الظاهر برقوق شفاعته لدى الأمير الحفصي من اجل ارسال اهله

ولم يلبث الظاهر برقوق أن وافق لطلب ابن خلدون وأرسل إلى الأمير الحفصي . وبعد ذلك ينتقل الظاهر برقوق إلى الشفاعة لابن خلدون عند الأمير الحفصي في

---

[46] انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٦٧.

احضار أهله وأولاده. وتأكدت عمق الروابط الأخوية بين السلطان الظاهر برقوق والأمير الحفصي أبو العباس عندما استجاب لطلب الظاهر وارسل عائلة ابن خلدن إلى مره ي الاسكندرية ، عصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه.

كما حرصت دولة بني حفص على إرسال الهدايا إلى دولة المماليك ، للتهنئة في المناسبات الرسمية حرصاً منها على تأكيد الروابط الاجتماعية بين الدولتين، وقد برزت هذه العلاقات بشكل واسع في عصر دولة المماليك الثانية (الجراكسة او البرجية)([47])

ففي سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) وفد إلى أبواب السلطان قلاوون جماعة من اكابر العرب (٢) . وعندما بلغ الخليفة الحفصي أبو حفص عمر خبر وصولهم وما عاملهم به المنصور قلاوون من الاكرام والاحتفال بادر إلى ارسال قاضي الجماعة بصحبة عدد من كبار رجال الدولة وعدد من الهدايا القيمة إلى المنصور قلاوون ، وعندما وصلوا إلى مصر سير المنصور فلاوون جماعة من الامراء لتلقي هذا الوفد

وكان الظاهر برقوق قد حصل بينه وبين الأمير الحفصي أبو العباس مودة وصداقة وكانت هذه الصداقة قد تجددت بفعل الهدايا والسفارات المتبادلة بين الطرفين.

كما ربطت السلطان عبد العزيز علاقات دبلوماسية واقتصادية بسلاطين مصر من المماليك تمثلت بتبادل الرسائل الودية مع السلطان الناصر فرج بن برقوق لتهنئته بارتقائه العرش ، والكتب التي بعثها السلطان المملوكي الجديد المؤيد شيخ المحمودي فيما بعد للسلطان أبي فارس يحيطه علماً بها بالمعارك التي سبقت ارتقائه العرش في شعبان من عام (٨١٥هـ / ١٤١٣م)، وشكره جزيل الشكر على التهاني التي حرص على توجيهها اليه.

---

[47] ابن خلدون ، العبر ، ج ٧، ص ٧٣٠ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، صبح الاعشى ، ج ٧، ص . انوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٦٨.

ولم تقتصر العلاقات الودية على ذلك وإنما كان لرعاية الحجاج نصيب وافر في هذا النمط من العلاقات، فقد حرصت دولة المماليك على تسهيل وحماية ركب للحجاج المغاربة نظرا لموقع مصر في طريق الحاج المغربي ومكانتها واشراقها على الأراضي المقدسة ([48]).

ففي سنة ٧٨٨) هـ / ١٣٨٦م (كان أول ركب إذ أرسل الأمير الحفصي أبو العباس أحمد بن أبي بكر سفارة إلى دولة المماليك وكان هدفها السماح للحجاج التونسيين بأداء فريضة الحج ،

إذ وفد إلى أبواب السلطان وفد من الأمير الحفصي السابق الذكر وكان بصحبتهم هدية عبارة عن عدد من الجياد العربية الأصيلة ، وقد استقبلهم السلطان الظاهر برقوق استقبالا رحبًا.

وقبل الحديث عن العلاقات العسكرية لدولة الممالك ، مع دولة بني حفص لابد من الاشارة إلى جذور هذه العلاقات ، والتي ترجع إلى زمن الأيوبيي ، حيث كانت هناك علاقة ودية طيبة بين الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر وبين الأمير الحفصي أبي زكريا يحيى الأول (٦٢٥-٦٤٧هـ) .)

فعندما تحقق الأمير الحفصي من حملة لويس التاسع على مصر قبل ان يبلغ ذلك الملك الصالح ، بادر إلى تحذيره وذلك من خلال إرساله كتابا بذلك بصحبة أحد رسله إلى القاهرة ليخبر الملك الصالح نجم الدين بما عزم عليه لويس التاسع ، كما تضمن الكتاب اعتذار الأمير الحفصي عن مساعدة الصالح نجم الدين وعدم تمكنه

---

[48] العتابي ، محمد سعيد رضا ، اهمية الحج في تعميق الصلات بين مغرب الدولة العربية الاسلامية ومشرقها ، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، العدد الثالث ، السنة التاسعة عشر ، ٢٠٠٠ م ، ص ١٩-٢٤

من إرسال نجدة له بسبب خشيته من عدوه صقلية ومن أعراب إفريقية ، لذلك بادر الملك الصالح إلى شكر الأمير الحفصي على تحذيره ([49])

ملك

وقد تبوأت حملة لويس التاسع على تونس والتي عرفت في المصادر المعاصرة بالحملة الصليبية الثامنة مكانه مهمة في تاريخ الحروب الصليبية كونها كانت الحملة الاخيرة ومني بها الصليبيين بخسارة كبيرة ، اذ فقدوا فيها ملكهم لويس التاسع وأعدادا كثيرة من جنودهم واستمر الإعداد لهذه الحملة سنوات عديدة قبل أن يغادر الملك لويس أرض فرنسا حيث قدر عدد المشاركين في هذه الحملة بحوالي أربعين الف رجل.

ومن الجدير بالذكر ان المشاركين في هذه الحملة لم يكونوا يعلمون أن البلد المقصود بها هي تونس ، وانما كانوا يعتقدون ان وجهتهم فلسطين أو مصر لإعادة الكرة عليها(١).

هي أما عن سبب تغيير هذه الحملة إلى تونس فذكر ابن ابي دينار ان الملك لويس التاسع خاف من التوجه ثانية إلى مصر ولاسيما وان مصر كانت تمثل مركز قوة وثقل في تلك الفترة في ظل دولة المماليك ولاسيما بعد الانتصارات التي حققتها ضد المغول والصليبين (٢) .

ويرى أحد المعاصرين أن سبب توجه هذه الحملة إلى تونس أن الملك لويس التاسع كان يريد احتلال أشهر مدينة إسلامية في تلك الحقبة وهي تونس ولاسيما بعد أن

---

[49] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٧١.

أصبحت عاصمة الخلافة الحفصية ، ولفتت الأنظار إليها بعد سقوط بغداد في أيدي التتر سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ([50]).

ولعل ما ذكره ابن أبي دينار أقرب إلى الصواب. ومما يؤكد ذلك أن الظاهر بيبرس عندما علم ان لويس التاسع سيقصد مصر ارسل إلى فرنسا لتحذير الاخير من عاقبة مشروعه ويحذره

من الرجوع إلى مصر وقد أنشد الرسول امام لويس التاسع قصيدة للصاحب بن مطروح بن يحيى بن عيسى جمال الدين شاعر الظاهر بيبرس يبين له فيها ان دار ابن لقمان على حالها وان صبيح سيحرسه من جديد ، وقد راجت هذه القصيدة في تونس واتخذها المجاهدون التونسيون نشيدهم الحماسي

على الرغم مما أثارته مشكلة الخلافة بين دولة المماليك ودولة بني حفص من استياء الظاهر بيبرس من الأمير الحفصي المستنصر ، فانه لم يتردد في محاولة اعانة تونس بالجند والعتاد لمواجهة حملة لويس التاسع

غير أن الظاهر بيبرس لم يكد يمضي في استعداداته حتى جاءت الاخبار بموت لويس التاسع ، وفشل حملته ، الأمر الذي جعل الظاهر بيبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويرسل البشائر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر (٤)

كما شاركت دولة بني حفص دولة المماليك في التصدي للأخطار الخارجية وذلك من خلال المشاركة في الأعمال الحربية والتصدي للأخطار الخارجية التي طالما هددت دولة المماليك والمتمثلة بجزيرة قبرص وملوكها من آل لوزجنان

---

[50] الطويلي ، احمد ، الحملة الصليبية الثامنة على تونس ، ص ١٩٣ أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٧٢.

فاستطاعت دولة المماليك عهد الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١) هـ) أن تفرض سيطرتها على جزيرة قبرص التي سبق وأن عمل ملوكها من آل لوزجنان على مهاجمة شواطيء دولة المماليك، وخاصة بعد أن استولى المماليك على عكا سنة (٦٩٠) هـ / ١٢٩١ م) وطردوا اخر البقايا الصليبية من بلاد الشام ، فضلا عن هجمات ملوك قبرص من آل لوزجنان اللاحقة والتي بلغت ذروتها سنة (٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م) عندما هاجم بطرس لوزجنان تغر الاسكندرية ودمره بأكمله. ([51])

ولم يكن بوسع دولة المماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرص نظرا للظروف التي أحاطت بدولة المماليك في أعقاب وفاة الناصر محمد بن قلاوون وتولي احفاده السلطنة في مصر .

ويبدو ان ملوك قبرص ظنوا ان سكوت سلاطين المماليك عن هجماتهم بسبب عجزهم عن التصدي لهم ، فاستمروا في هجماتهم على شواطئ دولة المماليك مرة بعد اخرى .

لذلك قرر الاشرف برسباي القيام بعمل قوي حاسم لاخضاع هذه الجزيرة ، فارسل ثلاث حملات ، كانت الحملة الاولى في سنة (٨٢٥هـ / ١٤٢٤م) وهي حملة حملة استكشافية ، مكونة من اسطول صغير صنعت سفنه في دور صناعة السفن في

[51] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٧٥.

بولاق ودمياط وطرابلس الغرب ([52]). وتمكنت هذه الحملة من مهاجمة ميناء ليماسول ([53]) (limasol)

وهذا ما شجع برسباي لإرسال حملة أخرى في السنة التالية (٨٢٦هـ / ١٤٢٥م) وقد بلغت عدة سفن هذه الحملة حوالي أربعين سفينة ، وقد اشتركت مع جيش المماليك في هذه الحملة فرقة من قبل السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (٧٩٦-٨٣٧هـ) ، اذ خرج الاسطول المملوكي من بولاق بقيادة الأمير جرباش إلى قبرص ولحقه اسطول اخر مكون من ثلاثين سفينة من طرابلس الغرب وتوجه مباشرة إلى فاماجوستا على شاطئ قبرص ([54]) اذ مكثوا فيه اربعة ايام شنوا فيها الغارات على المناطق القريبة ثم توجهوا إلى ليماسول اذ استطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين ومن ثم رجعوا إلى مصر ([55])

---

[52] اشتهر البحارة الطرابلسيون في صناعة السفن بحكم موقع بلدهم وفي قيادة العمليات الحربية في البحر وكانت توجد لديهم نفايات خاصة في جيش المماليك تتولى تسجيل اسمائهم ؛ ينظر المقريزي، السلوك ، ج ٣، ف٢، ص٢١٣

[53] عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، قبرص، والحرب الصليبية ، ص ٩٠.

[54] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٧٦ .

[55] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢ ، ص ٢٨٢ .

غير ان الاشرف برسباي لم يقتنع بهذه الانتصات التي حققها وفكر في اعداد حملة ثالثة لاخضاع الجزيرة بصورة كاملة ، ولاسيما بعد الإمداد المساندة التي حصل عليها من قبل السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز ([56])

لذلك لم يلبث برسباي ان قاد حملة ثالثة سنة (٨٢٧هـ / ١٤٢٦م) اذ هاجمت ميناء ليماسول وتمكنت هذه الحملة من الاستيلاء عليه ، وكبدت القبارصة خسائر كبيرة واحتل المماليك عاصمة قبرص نيقوسا ، واخيرا عادت الحملة إلى القاهرة ومع المسلمين مئات الأسرى ومن بينهم جانوس ملك قبرص ([57]) . وبذلك تكون دولة بني حفص قد اسهمت مساهمة فاعلة في اخضاع الجزيرة .

---

[56] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٨٢

[57] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٧٧ .

أولا : العلاقات السياسية :-

العلاقات الخارجية مع دولة بني مرين ٦٦٨-٨٦٩هـ

حرصت دولة بني مرين التي قامت في فاس في أعقاب سقوط دولة الموحدين على توثيق مع دولة المماليك في المجالات كافة .([58]) . ولم يقتصر هذا الحرص على دولة بني مرين المماليك أيضا على تقوية هذه العلاقة. خاصة وأن دولة بني مرين كانت تمثل أكبر قوة في بلاد المغرب فضلا عن دورهم البارز في حماية الاسلام وجهادهم في الأندلس ([59]) .

ويضيف أحد الباحثين ([60]) أسباب أخرى لمتأنة هذه العلاقة بين الطرفين منها:

١- لم تثبت عن دولة بني مرين ادعائها الخلافة رغم كونها قادرة على كسب تأييد دول المغرب إذا حاولت ذلك ، وبالتالي لم تظهر بدور المنافس لدولة المماليك منذ البداية.

٢ - يوجد هناك تشابه كبير بين الدولتين ، فدولة المماليك كانت تمثل أكبر قوة في مشرق الدولة العربية الاسلامية وامتد نفوذها ليشمل بلاد الشام واليمن والحجاز ،

---

[58] عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام ، ص ٢٨٠ .

[59] للمزيد من الاطلاع على جهاد بني مرين في الأندلس ؛ ينظر : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ وما بعدها ؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، ج ٣-٤

[60] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٣. العبادي ، احمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٨٦

فضلا عن تمكنها من مواجهة المغول والصليبيين وتحقيق عدد من الانتصارات عليهم ، وهذا الحال ينطبق على دولة بني مرين التي تمكنت من توحيد المغرب باكمله تحت نفوذها مرات عدة ([61]) .

-٣-

كان لدولة بني مرين علاقات جيدة مع ملك قشتالة ولو لفترة قصيرة ، وقد استفاد المماليك من هذه الصلات الجيدة في توسيط دولة بني مرين في حل مشاكل الملاحة العالقة في البحر المتوسط بين دولة المماليك وبين ملك قشتالة ([62])

ويشير ابن حجر العسقلاني إلى هذه الوساطة فيقول :-

(أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين ابن الصائغ الدمشقي قال : حدثني سيف الدين فليح المنصوري قال : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية ، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها

وكان يعاصر المنصور قلاوون في هذه الفترة اثنان من الملوك المرينيين وهما أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٦٨-٦٨٥هـ) ([63]) والآخر ابنه يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥-٧٠٦هـ) (٢).

---

[61] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٤

[62] ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق لجنة احياء التراث الاسلامي ، المطبعة الأميرية الكبرى ، مصر ، ١٩٦٩م ، ج ١، ص ١٧٥

[63] فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ص ١٥٧

ولا يمكننا التكهن بمعرفة أحد الملكين المغربين المعني بالأمر في هذه السفارة وذلك لأن النص الوارد لم يحدد تاريخًا يخص هذا الشأن ، وعلى كل فقد نجحت هذه السفارة والتي تعكس ثقل ووطأة دولة بني مرين وقوة علاقاتها مع ملك قشتاله.

بيد أن دولة بني مرين حرصت على تعميق صلتها بدولة المماليك ، وذلك من خلال

إرسال عدد من السفارات بصحبة ركب الحجاج المغاربة او منفردة في بعض الاوقات

وكانت أولى هذه السفارات سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٢م) وكانت قد ذهبت بصحبة ركب الحجاج المغاربة وصحب هذه السفارة عدد من الهدايا التي بعثها يوسف بن يعقوب للناصر محمد بن قلاوون وفرقة عسكرية لحماية اعضاء السفارة تناهز خمسمائه فارس من ابطال زنانة ([64]).

وكانت لهذه السفارة أغراض أخرى غير تعميق الصلات بين دولة المماليك ودولة بني مرين هي كسب ود أمراء الحجاز ، اذ صحب السفارة مجموعة من رجال الصلاح والعلم برسم حمل المصحف الشريف الذي أهداه صاحب فاس يوسف بن يعقوب بن عيد الحق ليوقفه في مكة ([65])

ويبدو أن السلطان المريني يوسف بن يعقوب كان يهدف من وراء إرسال هذا المصحف

الحصول على دعم وتأييد شريف مكة لدولته ، مستغلا متأنة العلاقات بين دولته ودولة المماليك.

---

[64] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب ، ص ٩٥

[65] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٥

ولم تلبث جهود السلطان المريني أن تكللت بالنجاح فعندما عاد اعضاء السفارة بصحبه ركب الحجاج المغاربة إلى المغرب سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٣م) وفد معهم إلى بني مرين الشريف لبيدة بن أبي نعي نازعا عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ([66])

وفي سنة (٧٠٤هـ /١٣٠٣م) لم يلبث ركب الحجاج المريني أن عاد إلى المغرب حتى بادر السلطان المريني إلى إرسال سفارة أخرى إلى دولة المماليك وكان بصحبة هذه السفارة هدية جليلة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهي عبارة عن عدد من الخيل والبغال والابل مع جملة من الذهب العين (٢).

ويبدو أن هدف هذه السفارة هي من أجل إظهار حسن نوايا السلطان المريني للناصر محمد بن قلاوون ، وتأكيده على متأنة العلاقات بين الدولتين لاسيما بعد زيارة امير مكة للمغرب وكان الشخص المكلف بهذه السفارة هو ايدغدي الشهرزوري (٣) وقد اكرم الملك الناصر محمد بن قلاوون السفير المغربي وأرسل معه عدد من الهدايا إلى السلطان المريني ([67])

---

[66] كان سبب قدوم صاحب مكة بسبب اعتقال الناصر محمد بن قلاوون لأخويه حميضة ورميثة بعد موت أبيهم ابي نعي سنة (٧٠٤هـ)؛ ينظر : ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٧٣ . أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٦

[67] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٦ . علاء الدين ايدغدي الشهرزوري واصله من الاكراد الشهرزورية وكان قد هرب الى برقه مع جماعة من الاكراد بسبب مضايقة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري له ، وقدم على أبي يعقوب بهدية جليلة ، فقربه اليه حتى صار في منزلة وزير وحسنت سيرته عندهم لذلك كلفه للقيام بهذه السفارة ؛ ينظر :

ولعل أهم ما في هذه السفارة أنها عادت وهي تحمل معهما بيعة أشراف مكة ليوسف بن عبد الحق المريني وكان بصحبة هذه البيعة هدية هي تتكون من ثوب من كسوة الكعبة (٢) . وقد سُر به صاحب فاس أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق واتخذه زيًا رسميا في الجمع والأعياد (٣)

– سفارة الناصر محمد بن قلاوون سنة (٥ . (٧٠٥هـ / ١٣٠٦م)

حسن موقع السفارة والهدية التي بعثها السلطان يوسف بن عبد الحق لدى الناصر محمد

بن قلاوون لذلك بعث له بهدية جليلة وعين لحملها كبار دولته وهم علاء الدين ايدغدي التليلي والأمير علاء الدين ايدغدي الخوارزمي ، وكانت الهدية مجموعة نادرة من طرف بلاد المشرق مما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوان ونحو ذلك مثل الخيل والزرافة ونحوها ([68])

ولما كان الملك الناصر محمد حديث العهد بالأنتصار الذي حققه على المغول في سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) . ([69]) لذلك أرسل مع الهدية عدد من مغأنم دولة المماليك

أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٧ وأيضا: الناصري ، الاستقصا ، ج ، ، ص ١٧٠ .

[68] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٧.

[69] (1) المقصود بهذا الانتصار الكبير الذي حققه الناصر محمد بن قلاوون على المغول في موقعه مرج الصفر قرب

وكانت تحتوي على عشرين اكديشا من اكاديش التتر وعشرين أسيرا منهم وشيئ من طبولهم وقسيهم (*)

ويبدو أن غاية الناصر محمد بن قلاوون إرسال عدد من مغأنم دولة المماليك من المغول

تذكير دولة بني مرين بقوة وسطوة دولة المماليك وخاصة بعد وصول بيعة مكة للسلطان المريني وكانت السفارة السابقة الذكر قد خرجت من القاهرة أواخر سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٦م) ووصلت تونس في ربيع الثاني من السنة نفسها ومن ثم وصلت إلى مدينة تلمسان التي كانت خاضعة لسلطان بني مرين في جمادي الآخرة من السنة نفسها (٣).

(٢) أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٨. (٣) أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخلال عودة السفيرين إلى فاس توفي السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق في يوم الاربعاء ٧ ذي القعدة سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) فتولى تجهيز الهدية إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان فاس الجديد عامر بن عبد الله بن يوسف (٧٠٦-

---

دمشق حيث تكبد المغول خسائر كبيرة في هذه الموقعة وانحسر نفوذهم على اثرها عن الشام ؛ ينظر : عاشور ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام ، ص ١٧٥

٧٠٨هـ) (١) وبالغ في اكرام السفراء وبعث معهما بهدية مشتملة على خيل وبغال لناصر محمد بن قلاوون بصحبة عدد من الحجاج المغاربة (٢)

أيضًا اعتنت دولة بني مرين بإرسال السفارات التي تحمل أخبار الانتصارات والمعارك إلى دولة المماليك ، ومن الأمثلة على ذلك سفارة سنة (٧٣٧هـ / ١٣٣٧م) حيث أرسل أبو الحسن المريني رسالة إلى الناصر محمد بن قلاوون يعرفه بفتح تلمسان، وكان السفير القائم بهذه السفارة والمكانية هو ابن ميمون بن وردار

وذكر أبو الحسن للناصر محمد بن قلاوون تحركاته في المغرب والنصر الكبير الذي حققه باسترجاع جبل طارق اذ يذكر :

(وكان هذا الجبل الخطير شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين به شجاً في لهوات اهل العدويتين وغصة لنفوس الساكنين بالجبهتين لاطلاله عليها ..... فأحاطت العاديات السوابح برا وبحرا واذاقت من به من اهماج الاعلاج شرا وحصرا، إلى أن سلموه للمسلمين قهرا وقسرا ، ومنح الله حزبه المومنين فتحا ونصرا (. ([70])

تذكر الرسالة كذلك اعتناء أبو الحسن المريني بتحصين الجبل ، اذ ابتدا بتحصين اسواره ،وابراجه، ثم تتوسع الرسالة في الحديث عن توحيد المغربين ومن ثم تفرغه للجهاد في الأندلس الذي يصفه بقوله : (الفضيلة المذخرة لهذه الدولة (٢) نلاحظ في هذه المكاتبة هو حرص أبي الحسن المريني على تعريف الناصر محمد بن قلاوون بتحركاته في المغربين الاوسط والادنى واعلامه بكل أنتصار احرزته الدولة المرينية، وكانه يريد أن يذكر الناصر محمد بن قلاوون في كل مناسبة بقوة هذه الدولة وتحكمها ببلاد المغرب كونها القوة الوحيدة المتبينة للجهاد في الأندلس والقادرة على ارجاع الاراضي إلى حوزتها .

---

[70] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ٩٩.

وقد أجاب الناصر محمد بن قلاوون عن هذه الرسالة ، بكتاب أرسله إلى السلطان أبي الحسن المريني ، معلقا على الانتصار الكبير الذي احرزه الجيش المريني ، فضلا عن ذلك أبدي الناصر محمد بن قلاوون سروره بهذه الانتصارات ويشكره على تعريفه بها ([71]).

ثم ينتهز الناصر محمد بن قلاوون هذه المناسبة ليخبر السلطان ابا الحسن بانتصارات جيوش المماليك وغزوه لملك الأرمن او متملك سيس

ويبدو أن الناصر محمد بن قلاوون كان يهدف من هذه الرسالة أن يعرف السلطان المريني بانتصارات جيوش المماليك وأن يبين له أن الجهاد ليس مقصورا فقط على بني مرين وإنما يعود الفضل لدولة المماليك في حماية مشرف الدولة العربية الاسلامية من خطر المغول والصليبين.

واختتم الناصر محمد بن قلاوون رسالته يطلب من السلطان أبي الحسن بمواصلة كتبه إليه وتعريفه بالانتصارات التي تحققها دولة بني مرين في المغرب ([72])

وفي سنة (٧٤٥هـ / ١٣٤٤م) وصلت إلى دو المماليك سفارة من أبي الحسن المريني ، وكان القائم بهذه السفارة هو أبي الفضل بن أبي مدين وبصحبته رسالة طويلة إلى المللك الصالح أبو الفداء اسماعيل (٧٤٢-٧٤٥هـ). ([73])

وقد تضمنت هذه المراسلة أخبار الدولة المرينية وجهادها بالأندلس ثم تروي الرسالة ما كان من تجهيز أبو الحسن المريني للأساطيل وإرسالها إلى الأندلس لقتال الإسبان

---

[71] القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٧، ص ٣٩٨

[72] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٧، ص ٤٠٤ .

[73] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٦٩ .

والنصارى ، ثم ما لحق أساطيله مؤخرا من هزيمة أمام هؤلاء واحتوت الرسالة كذلك على ما كانت من مساعداته بالمال والرجال للسلطان يوسف الأول ، وأن مدينة الجزيرة الخضراء قد عانت من الحصار الإسباني ما عانت حتى استطالت الحرب ووهنت قوى المحاصرين، مما أدى إلى التنازل عنها والصلح مع الاعداء .

وكان في هذا الصلح التنازل عن الجزيرة الخضراء ، ولكن الله كان قد اكرمه باسترداد جبل طارق قبل ذلك بفترة ([74]) ويختم أبو الحسن هذه الرسالة بطلب المساعدة من السلطان المملوكي

الصالح أبي الفداء اسماعيل.

من الجدير بالذكر أن هذه الرسالة كانت أول رسالة مغربية تصل إلى المشرف من قبل سلطان مريني بطلب المساعدة ، مما يدل على حجم الخسائر التي تكبدتها الجيوش المرينية هذه الموقعة.

رسالة السلطان أبو الفداء اسماعيل للسلطان أبي الحسن

لم يلبث السلطان أبو الفداء أن بعث برسالة جوابية للسلطان أبى الحسن المريني ، يبدي فيها أسفه على ما لحق الجزيرة الخضراء من خسائر وفقد الملك المريني لأسطوله.

ثم بعد ذلك يعتذر السلطان أبو الفداء اسماعيل عن تقديم المساعدة للسلطان المريني

وعدم إمكانيته بأسلوب دبلوماسي

ويبدو أن السبب المباشر لعدم مساعدة السلطان أبي الفداء للسلطان المريني أبي الحسن هو تجنب دولة المماليك الدخول في حرب مع الممالك الإسبانية وهي التي

---

[74] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ١٠٢

تحتفظ بعلاقات دبلوماسية مع هذه الدول ، حيث كان هناك تبادل لعدد من السفارات بين الدولتين ([75]).

فضلا عن ذلك كان لدولة المماليك اعداؤها الذين يتربصون بها في مشرق الدولة العربية الاسلامية والمتمثلون بالمغول والصليبين ، لذلك تجنبت فتح اكثر من جبهة ضدها ممكن أن تؤدي إلى اضعاف قوتها ، وبالتالي فأن الصالح أبو الفداء يبارك الصلح في رسالته بقوله :-

(واما مارايتموه من الصلح ، فراى عقده مبارك ، وامر مافيه فارط عزم وأن كان فيتدارك ، والأمر كما لاكما نحب ، والحروب يزورها نصرها تارة ويغيب ، ومع اليوم غدا ، وقد يرد الله

الردى ، ويعبد الظفر بالعدا .... (١) يجب

غير أن السلطان ابا الحسن المريني لم يكن راضيا عن اعتذار دولة المماليك عن تقديم المساعدة ، ولم يلبث أن أرسل سفارة أخرى بصحبة ركب الحجاج المغاربة وكانت تحمل معهما رسالة إلى امراء الحجاز برفقة اخته مريم متضمنة رغبة ملك المغرب أن يدعوا له الخطباء يوم الجمعة واهل الصلاح والخير بالنصر على عدوهم ، وأن يكتب لاهل الحرمين الشريفين بذلك(٢)

---

[75] (1) للمزيد من الاطلاع على العلاقات والسفارات المتبادلة بين دولة المماليك والممالك الاسبانية ؛ ينظر : الحجي ، حياة ناصر ، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري ، مؤسسة الصباح ، ط ١ ، ١٩٨٠م .

ويبدو أن امراء الحجاز استجابوا لذلك ، وقد حاول السلطان أبو عنان فارس([76]) (٧٤٩- كذلك كسب ود امراء الحجاز ، ففي سنة (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) بعث بسفارة إلى دولة ٧٥٩هـ) المماليك. ([77])

والجدير بالذكر أن سلطان مصر في ذلك الوقت هو الناصر حسن بن الملك الناصر

محمد بن قلاوون في ولايته الثانية ، والتي كان فيها تحت استبداد اثنين من امراء المماليك ويبدو أن ذلك الوضع هو الذي دفع ابن خلدون أن يشير إلى هذه السفارة بأنها إلى ملوك مصر وهدف هذه السفارة تسهيل مهمة الحجاج فى الظاهر غير أن الهدف الرئيس لها هي أن السفير البرجي كان مكلفا من طرف أبي غسان بمهمة ثانية وهي ايصال رسالة نبوية كتبها أبو عنان إلى المقام النبوي الكريم بالمدينة المنورة .

وكتبها أبو عنان بخط يده (٣) واشتهرت في المشرق بالدرة السينية والرسالة النبوية (٤) وتكشف هذه الرسالة عن حرص دولة بني مرين الدائم على توثيق علاقاتها بامراء مكة والمدينة

المنورة .

- موقف دولة المماليك من الخارجين على دولة بني مرين

---

[76] وهو المتوكل على الله ابو عنان فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق بويع بتلمان في حياة ابيه، وكانت قد نشبت بينه وبين ابيه ابي الحسن المريني حروب كثيرة ، غير أن الكثير من المصادر المرينية تتحاشى ذكر ذلك ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٧، ص ٣٦٥ .

[77] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ١٠٤.

لم تلبث العلاقات السياسية بين دولة المماليك ودولة بني مرين أن أصابها بعض التوتر ، ولاسيما بعد قيام أبي الحسن بإرسال سفارة إلى بلاد الحجاز ([78])

وفي سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) بعث أبو الحسن المريني باخر سفارة إلى دولة المماليك قبل وفاته ،وقد اشار اليها الناصري أنها صدرت عن أبي الحسن في دخوله الثاني لتونس في ربيع الآخر من السنة المذكورة اعلاه ([79])

وكان سبب هذه السفارة هي التماس ملك المغرب أبي الحسن المريني من صاحب مصر ([80]) القبض على ابن تافراجين ([81]) الذي هرب منه إلى الاسكندرية بعد خروجه عليه ومظاهرته العرب في واقعتهم بالقيروان ضد ملك المغرب ، وكان الشيخ أبو محمد بن تافراجين مع السلطان أبي الحسن في القيروان غير صدره توغر على السلطان المريني أبي الحسن عند دخوله تونس لأنه طمع في أن يفوض اليه السلطان ابا الحسن أمور افريقية ، كما كان مع مولاه أبي بكر بن أبي زكريا سلطان تونس ، فلم يحصل على غرضه، وكانت العرب في القيروان تميل إلى ابن تافراجين،

---

[78] ابن خلدون التعريف بابن خلدون ورحلته ،ص٢٧٠.

[79] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب، ص ١٠٤.

[80] كان صاحب مصر في هذه الفترة هو الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٨-٧٥١هـ)؛ ينظر :ابن

[81] هو الشيخ ابو محمد عبد الله بن الشيخ ابي العباس احمد بن تافراجين التينملي من حجاب سلطان تونس ابي بكر بن أبي زكريا الحفصي؛ ينظر ، ابن الشماع ، الادلة البيئه ،ص ١١١ .

لذلك طلب هؤلاء من السلطان أبي الحسن أن يخرج اليهم الشيخ أبو محمد بن تافراجين ليتكلموا معه في الصلح فتم لهم ذلك ([82])

فقلدوه الحجابة لسلطانهم أبي دبوس ووجهوه معهم لتونس فحاصر قصبتها وكان السلطان أبي الحسن المريني قد ترك بها أولاده وماله ورجاله فحاصرها الشيخ أبو محمد بن تافراجين حصارا شديدا ورمى عليها المنجنيق، فتبعه أبو الحسن إلى تونس، وعندما سمع ابن تافراجين بذلك هرب إلى الاسكندرية في ربيع سنة (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) ، لذلك أرسل أبو الحسن هذه السفارة من اجل القبض عليه.([83])

غير أن السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون اضطر إلى التراجع عن القبض عليه ، لما أجاره بعض الامراء المصريين فانصرف الشيخ ابن تافراجين لقضاء فريضة الحج (*) ([84])

---

[82] ابن خلدون ، العبر ، ج 1 ، ص ٦١٨ ابن الضياف ، اتحاف اهل الزمان ، ص ١٢٨

[83] أنوار جاسم حسن العنبكي : العلاقات الخارجية لدولة المماليك مع بلاد المغرب ، ص ١٠٦ .

[84] لم يلبث ابن تافراجين أن عاد مرة ثانية الى تونس اذ حشد العرب لمواجهة المرينيين حتى عادت الدولة الحفصية من جديد عام (٧٥٨هـ / ١٣٥٧م) وبعد ذلك توفي بمرض الطاعون في ربيع الأول سنة (٧٦٦هـ / ١٣٦٤م) ودفن بمدرسته الكائنة بقنطرة ابن ساكن داخل باب سويفه : ينظر: الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ١٠١

الفصل الثاني :

رحلةُ الإمام السِيوُطيّ

العلمية إلى بلادِ التكرُور وأثرُها

مُلخصُ الورقة

"رحلةُ الإمام السيُوطي العِلمية إلى بلادِ التكرور وأثرُها"

"تتناول هذه الدراسةُ "الرحلة العلمية" التي قام بها الإمام جلال الدين السيوطي (ت: **911هـ**) إلى "بلاد التكرور"، وما نتج عن هذه الرحلة تأثيرات علمية وفكرية مهمة. كما تناقش هذه الدراسةُ الظروف التي واكبت تلك الرحلة، لاسيما وأنها رحلة لم تلق ما تستحقه من جانب المؤرخين السودانيين المعاصرين لتلك الزيارة، والذين لم يتحدثوا عن قدوم الإمام السيوطي إلى بلاد التكرور، ودوره في نشر العلم الشرعي والديني في بلاد غرب أفريقيا التي تعرف في المصادر الكلاسيكية باسم: "بلاد السودان الغربي". وجدير بالذكر أن "السيوطي" ذكر في ترجمته أنه زار "بلاد التكرور" أي أنها زيارة علمية مؤكدة رغم أنه لم يرد عنها أي شيء في المصادر السودانية المحلية. ومن المعلوم أن الإمام السيوطي كانت قد جمعته صداقةٌ قويةٌ مع "أسكيا محمد"، وهو "سلطان صنغي" – آنذاك – الذي التقى به في القاهرة خلال رحلة "أسكيا محمد للحج، ومن الراجح أن السيوطي قام بزيارة بلاد التكرور فيما يبدو بناءً على دعوة من اسكيا محمد".

Abstract

The Scientific Trip of Imam al – Siouty

to the Land of Takrur and its Influence

This Study aims to discuss the important visit made by Imam al Siouty to the Land of Takrur in addition to recognize its intellectual and scientific influence. The Study would discuss the conditions of this visit especially with silence of Sudanese

Sources about this important visit to Land of Takrur and the role made by Imam al – Siouty to spread the Religious Sciences in Takrur. We know that al – Siouty had good relationship with Askia Mohamed King of Songhai and We belive that the king of takrur had invited him to visit his country to benfit of his Islamic knowledge.

المُقدمة:

تَهدف الورقةُ للحديث عن إشكاليةِ الرحلة العلمية التي قام بها الإمامُ "السيوطي" **(ت: 911هـ)**. إلى "بلادِ التكرور"، وهي البلاد المعروفة بـ"السودان الغربي". ولاريب أن المأرب الرئيس من تلك الرحلة أن يقوم "السيوطي" بنشر علوم الدين بين العلماء وطلاب العلم في تلك البلاد خاصة، وبين شعب التكرور عامةً. ورغم ذلك ربما يرتابُ البعضُ في تلك الزيارة، ويرى أنها ربما لم تتم، لاسيما من خلال صعوبة الطريق إلى غرب أفريقيا على عالم كـ"السيوطي"، وهو يُعد أبرزُ عُلماء المسلمين آواخر عصر المماليك **(648-923هـ/1250-1517م)**. ومن الواضح أنه لم تتناول أيةُ دراسة سابقة أمر تلك الزيارة التي قام بها "السيوطي" بشكلٍ واضح، وتحديداً إلى "مملكة صُنغي" الإسلامية، حيث إن روايات المصادر عنها

قليلةً جدًا، ولعل ذلك مما قد يُعطي في ذات الوقت أهميةً لاتخفى على أحد لهذه الدراسة التي نحن بصددها. ولا يُعرف على وجه اليقين، كيف تمت تلك الرحلة، وما هي الطرق التي سلكها "السيوطي" للذهاب لبلاد التكرور، كما لانعلم ما وقع خلال تلك الزيارة من الأحداث بشكل واضحٍ، إذ إن كل ما ورد عنها ليس إلا نُتفًا ضئيلة من خلال ما ورد في بعض المصادر القليلة جدًا. وعلى هذا فموضوع تلك الورقة يتسمُ بالغموض، وهو ما يحتاج من الباحثين في تاريخ أفريقيا لمزيد من الدراسات، والتحقيق العلمي، والتدقيق التاريخي، نظراً لمكانة الإمام السيوطي العلمية، وذيوع صيته، وانتشار مصنفاته بين شعوب السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: **(الإمام السيوطي، بلاد التكرور، الرحلة العلمية، أسكيا محمد، العلوم الشرعية..)**

أولاً- ترجمةُ الإمام السيوطى:

هو الإمامُ، والفقيهُ، والعالمُ الحُجة: "عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق بن أبى بكر بن عُثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام الخُضيرى"[85]، عاش في الفترة من **(849-911هـ/1445-1505م)**، وكان يعُرف بلقب: "جلال الدين"، كما أنه لُقب أيضاً بـ"الأسيوطى الشافعى"[86]. وقد اشتُهر هذا

[85] **الخُضيرى: اشتهر السيوطي بهذا الاسم نسبة لمحلة في بغداد، كان جد السيوطى الأعلى منها: "وأما نسبتنا بالخضيرى ، فلا أعلم ما تكون اليه هذه النسبة إلا الخضيرية، محلة ببغداد..فالظاهر أن النسبة الى المحلة المذكورة.." (حُسن المُحاضرة، جـ1، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص 288). وللمزيد عن ترجمته، انظر السيوطي: الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت، تحقيق: محمد حسين الكبيسي، مجلة الجامعة العراقية، عدد رقم 3/28، بغداد، د.ت)، وانظر السيوطي: لُب اللباب في تحرير الأنساب، جـ1، تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص5-7.**

[86] **ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور،جـ4، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، 2008م،ص83.**

العالم المصري بـ"السيوطى" نسبة لمدينة "أسيوط"[87]، الواقعة في صعيد مصر. ويذكر "السيوطي" نفسه في مصنفاته أيضًا بلقب: "الأسيوطى"[88]، وقد ورد هذا الاسمُ فى ترجمته الواردة في كتابه "حُسن المحاضرة"[89]. كما كان يلقب بـ"ابن الكُتُب"[90]، ولعل ذلك بسبب ولعه بالكتب، وإقباله على التصنيف. وقد ولد "السيوطى" بالقاهرة سنة **849هـ**، ومات أبوه وهو غضٌ صغير، ورغم ذلك اجتهد في تحصيل العلم، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يتم العاشرة[91]. ورغم نشأة السيوطي بالقاهرة، وارتباطه بها، إلا أن أسرته لم تنس جُذورها الأولى بأرض الصعيد، ومن ذلك أن السيوطي يذكر أن أسرته بنت مدرسة فى "أسيوط"، وأوقفت أسرته على تلك المدرسة الأوقاف[92]. وقد

---

[87] أسيوط: تقع بالصعيد الأوسط جنوبي مصر، حوالي 300 كم جنوب القاهرة. نالت أهمية كبيرة خلال العصر الوسيط لاسيما وأنها كانت ترتبط ببداية "درب الأربعين"، وعندها يبدأ الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية، وكذلك قوافل الحجيج التي تذهب إلى قوص، ومنها إلى عيذاب حيث المراكب التي تحمل الحجاج الى مكة، كما كانت تسلكه القوافل التي تذهب لأقاليم سودان وادي النيل، ولاسيما دارفور (وللمزيد عن درب الأربعين، انظر التونسي: تشحيذ الأذهان، تحقيق: خليل محمود عساكر ومصطفى مسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م، ص47 وما بعدها، وانظر إسماعيل حامد إسماعيل علي: قبيلة جهينة ودورها الحضاري في مصر وسودان وادي النيل، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2016م، ص200.

[88] الأسيوطى: هكذا يذكر السيوطى نفسه فى ترجمته فى "حسن المحاضرة"، حيث يذكر نفسه مرة: "السيوطى"، وأخرى: "الأسيوطى" (حسن المحاضرة، جـ1، ص 288–294). واشتهر علماء آخرون بـ"الأسيوطي"، منهم فقيه من علماء المالكية، وقبره عند سفح القطم، يقول السخاوي: "وقيل إن بهذه الخطة قبر الفقيه محمد بن محمد الأسيوطي أعلى الطريق المسلوك.. كان فقيها مالكيا، وكان يكثر من زيارة الصالحين" (السخاوي: تحفة الألباب وبغية الطلاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2014م، ص317).

[89] السيوطي: حُسن المحاضرة: جـ1، ص288.

[90] السيوطي: الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت (ترجمة السيوطي)، ص2.

[91] وعن مولده، يقول السيوطى في ترجمته: "وكان مولدى بعد المغرب، ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة.." (انظر، حسن المحاضرة: جـ1، ص288). وللمزيد عن ترجمة الإمام السيوطى، ونشأته، انظر محمد عبدالله عنان: مؤرخو مصر الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأعمال الفكرية، 1999م، ص143، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ4، ص83 ، يوسف النبهانى: جامع كرامات الأولياء، جـ2، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت، ص ص166–167.

[92] السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص288.

صار "السيوطي" أحد علماء مصر الأفذاذ، فهو من ذوي العلم الواسع، والمنطق الرصين، كما أنه برع فى شتى صُنوف العلم، فكان فقيهًا، ومُفسرًا، ومُحدثًا، وكان مؤرخًا، وأديبًا، قلما يجود الزمان بندٍ له. قال "ابن إياس" (ت: **930هـ**): "وكان عالمًا فاضلاً، بارعًا فى الحديث..وكان كثيرَ الاطلاع، نادرة فى عصره، بقية السلف، وعُمدة الخلف.."[93]. ومن جانبٍ آخر، ينعته "الوفرانى" (ت: 1251هـ) بأنه: "الإمام، شيخ الإسلام، حافظ الحُفاظ" [94]. وكان "السيوطى" مُصنفًا غزير التأليف في شتى العلوم، وربما فاق غيره من السابقين واللاحقين، وقد بلغت تصانيفه، وما ألفه من الكُتب ما يشقُ علينا تصوره، حيث تذكر بعضُ المصادر أنه صنف "نحوًا من **600** تأليف[95]. بينما يذكر آخرون أن مؤلفاته بلغت حوالي **500** كتاب[96]. وقيل إنه قام بتصنف زُهاء **400** كتاب[97]. بينما في ترجمته، يذكر السيوطي أنه ألف حوالي **300** كتاب[98]، هذا بخلاف ما رجع عنه من الكتب، وهذا الرقم يعني تصنيف "السيوطي" حتى ذلك الوقت الذي يتحدث فيه، فمن المؤكد أنه صنف بعد ذلك مُؤلفات أُخرى عديدة. ويرى الباحثُ أن الرقم الأول هو الأصح، إذ أورده تلميذه

---

[93] **ابن إياس: بدائع الزهور، جـ4، ص83.**

[94] **محمد الصغير بن عبد الله الوفرانى: نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، تقديم: الدكتور أيمن فؤاد سيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2012 م، ص89.**

[95] **ابن إياس: بدائع الزهور، جـ4، ص83.**

[96] **عنان: مؤرخو مصر الاسلامية، ص144.**

[97] **الهادى المبروك الدالى: التاريخ الحضارى لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ليبيا، 2000م، ص191.**

[98] **يذكر السيوطى فى ترجمته لنفسه عن تصانيفه قائلاً: "وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب، سوى ما غسلته، ورجعت عنه.." (حسن المحاضرة، جـ1، ص289). وهو ما يشير إلى أن هذا القول يوافق الحقبة الزمنية التي كتب فيها السيوطي كتاب "حسن المحاضرة"، ومن ثم لم يكن هذا الرقم معبرًا بدقة عن كل ما صنف السيوطي من الكتب بعد حسن المحاضرة. وربما يعنى ذلك من جانب آخر أن السيوطى كان قد رجع عن بعض مؤلفاته، وآرائه، حيث وجد أنها لا تعادل ما بلغه من العلم والفهم، وقال فيها قولاً أو رأيًا قد تركه، وهو من الأمور المعتادة بين أهل العلم، فقد ترك الشافعى (ت: 204هـ) الكثير من آرائه لما جاء القاهرة من بغداد، وتعرف على أهلها، وعاداتهم. كما أن السيوطى يقول أنه بلغت كتبه "إلى الآن"، يعنى أنه قام بالتأليف بعد ذلك حتى وافاه الأجل.**

المؤرخ "ابن إياس" (ت: **930هـ**)، ولاريب أن ابن إياس كان أعلم بكتُب شيخه، وعددها أكثر من غيره. وعلى أية حال فـ"السيوطى" كان عالمًا، وفقيهًا موسوعيًا، واسع الفَهم، وهَبَ حياته للعلمِ، حتى فتح الله عليه بهذا الكم الغزير من التصانيف النافعة والتى لاقت قبولاً بين أهل العلم فى بلاد المسلمين. ولهذا يذكر الشعرانى (ت: **973هـ**)، الصوفي المعروف[99] بأنه لو لم يكن له من الكرامات، إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها، وتدقيقها، لكفى ذلك شاهدًا لمن يؤمنُ بالقُدرة[100]. كما نعته "السقاف" بأنه "إمام العلماء المُتبحرين، وأوحدُ الأولياء العارفين"[101]. وقد أثنى علماءُ التكرور على الإمام "السيوطي"، وعلمه، ومن أبرزهم "أحمد بابا التنبكتى" (ت: **1036هـ**)[102]، حيث يقول: "كثرت تصانيفه، وانتشرت فى الأفاق، من بلاد الشام، والروم، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور، وذلك فى حياته"[103]. ومن ثم لم يكن من المُستغرب أن يُصبح "السيوطي" واحدًا من أقطاب مؤلفي الموسوعات فى العلوم الإسلامية، وكذا في التاريخ، وغيرها من صنوف العلوم في التاريخ الإسلامي[104]. ومن المعلوم أن مؤلفاته لاقت قبولاً واسعًا بين الناس، وحرص طُلابُ العلم، وكبار الفُقهاء من البلاد الأُخرى على القدوم إليه ليأخذوا عنه العلم، وكانت الدعوات لاتنقطع له من شتى البلاد للذهاب إليها، ولهذا كان "السيوطي" عالمًا كثير الأسفار، مُقبلاً على رحلات العلم، وقد زار العديد من البلدان، وهو ما يذكره

---

[99] **الشعرانى: أحد أئمة التصوف، عليه مآخذ كثيرة، وينسب له حى باب الشعرية، لأنه سكنه، وطاب له المقام به. اسمه كما فى ترجمة كتابه المعروف "الطبقات الكبرى": "أبو المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن على بن الشعراوى الأنصارى" (الشعرانى: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2011م، ص5)**

[100] **النبهانى: جامع كرامات الأولياء، جـ2، ص167.**

[101] **المصدر السابق، ص168.**

[102] **أحمد بابا التنبكتي: وللمزيد عن ترجمته، انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج: ص3-4، وانظر البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور، ص60 وما بعدها.**

[103] **الهادى المبروك الدالى: التاريخ الحضارى لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص191.**

[104] **عنان: مؤرخو مصر الاسلامية، ص142.**

السيوطي في ترجمته المعروفة[105]، وكان منها: بلاد الحجاز، والشام، وبلاد الروم[106]، كما زار السيوطي بلاد المغرب، وبلاد الهند، واليمن، وكذلك بلاد التكرور[107]. كما كان له الكثير من العلاقات بالعلماء المسلمين في شتى بقاع الأرض، لاسيما العلماء والفقهاء في بلاد التكرور[108].

ثانياً- لقاءُ السيوطى وأسكيا محمد ملك التكرور:

أقبل الحُكام والأُمراءُ على التقرب من "السيوطي" نظرًا لشهرته، ولمكانته، ولرغبتهم في الإفادة من علمه، وكان الأمراءُ يحرصون على أخذ مشورته، ونصحه، بينما "السيوطي" ذاته لم يكن من علماء السُلطة، ولم يكن يُرحب بالذهاب إليهم[109]، نظرًا لانشغاله بالعلم والتصنيف، ولأن الزُلفى من الحكام فتنةٌ عظيمة لأي عالم. كما كان "السيوطي" يرفض أموال السلاطين، وهداياهم، فقد أرسل له السلطان "قُنصوة الغُوري" **(906–922هـ)** ألف دينار ذات مرة، فردها السيوطي، ثم أخبر حاملها ألا يأتيه بمالٍ، أو هديةٍ مرة أُخرى من السلطان، لأن الله أغناه عن ذلك المال[110]، وهو تصرفٌ يُثير الإعجاب بهذا العالم الرصين، وصاحب الشخصية القوية والذي يُمكنه أن يفعل مثل تلك الأمور غير المعتادة مع الحكام والسلاطين. وكان الحُكام يبعثون بالمراسلات والدعوات إلى "السيوطي" حتى يذهب لقصورهم، وأن يحضُر مجالسهم

---

[105] **السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص288.**

[106] **محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص144.**

[107] **يُقصد بالروم بلاد العجم والبلاد غير العربية لاسيما فى أوروبا، وما يعرف عند العرب بـ"بلاد الفرنجة".**

[108] **الهادى المبروك الدالى: التاريخ الحضارى لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص192.**

[109] **يقول محقق كتاب حسن المحاضرة: "كان السيوطي يحب الابتعاد في حياته عن أصحاب السلطان، والجاه، في الوقت الذي كان يأتيه الوزراء والأمراء لزيارته.." (السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص5).**

[110] **عنان: المرجع السابق، ص144.**

على غرار أكثر العلماء، فلم يكن يستجيب، وكان ذلك بالطبع يُسبب له أزمات كبرى، إذ كان رفضه الذهاب للسلاطين والأمراء يُغضبهم، ويثير سخطهم عليه، لأنهم كانوا يعتقدون أن تصرفه بهذه الطريقة يُظهر التعالي عليهم[111]. ورغم تلك الضغوط، لم يغير "السيوطي" منهجه في الحياة، ومقاطعة قصور الحكام، بل وأظهر موقفه ذلك علنيًا، حيث لم يتورع عن التأليف فى ذلك الشأن صراحة، فصنف "السيوطي" كتابًا يحثُ العلماء على عدم التقرُب من الحُكام، وأصحاب النفوذ، وقد دعاه باسم: "**ما وراء الأساطين فى عدم التردد إلى السلاطين**"[112].

ورغم ذلك، جمعت الإمام "السيوطي" علاقة ودٍ نادرة، قد تكون أقرب للصداقة مع أحد الحُكام الأجانب، وهو السلطان "أسكيا محمد" (898-935هـ)[113]، وهو حاكم سلطنة صُنغي الإسلامية (777-1000هـ)، وهي من ممالك غرب أفريقيا، وقد اشتهر "أسكيا محمد" في المصادر المملوكية بـ"ملك التكرور"، واسم "التكرور" هو لأحد أقاليم السودان الغربي، ثم أُطلق ذات الاسم بعد ذلك على باقي أقاليم هذه

---

[111] وللسيوطي قصة مشهورة مع السلطان "طومان باي" لما غضب على السيوطي بسبب رفضه العمل في ظائف الدولة التي يطلبها منه السلاطين بسبب انشغاله بالعلم، وهو ما أغضب السلطان عليه، وتوعده بشدة، فاختفى السيوطي عن الأنظار شهورا خشية منه، وكان من حسن حظه أن عزل السلطان في ذلك الوقت خلال ولاية السلطان "طومان باي" الأولى (السيوطي: لب اللباب (ترجمة المحقق): ص7).

[112] عنان: المرجع السابق، ص144.

[113] أسكيا محمد (1493– 1529م): أول ملوك الأساكى (الأسكيين)، أصلهم من صنهاجة، كان قائدًا للجيش أيام السلطان "سني على"، وأيام حكم ابنه، واسمه مامادو (محمد) توريه، وهو مؤسس دولة الأساكى، وجعل جاو عاصمة له، اشتهر بزيارته للحج التى أنفق فيها نحو ثلاثة آلاف مثقال من الذهب، وللمزيد:

Carl Grimberg: Histoire Universelle, Tome 8 , Presses de Gerard Belgique , PP. 274 – 275.

ويقول الوفرانى: "آل سكية أصلهم من صنهاجة، وملكوا كثيرا من بلاد السودان، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون القاف..." (الوفرانى: نزهة الحادى، ص89).

البلاد[114]. والنسبة لها: "التكروري"، وقد استخدم السيوطي ذات الاسم في الحديث عن رحلته لهذه البلاد، وهو ما يعني أن أهل تلك البلاد – أي بلاد غرب أفريقيا – آنذاك كانوا يستخدمون اسم "بلاد التكرور". ويذكر "السيوطي" في أحد مؤلفاته عن هذه البلاد: "والتكروري: بالفتح، ورائين مُهملتين إلى تكرور، بلاد في أقصى جنوب المغرب"[115]. ويرى الباحثُ أن السيوطى ارتبط بـ"أسكيا محمد" ملك التكرور رغم إعراضه عن التقرب من الحُكام والسلاطين بصفةٍ عامة، ربما لأنه سلطانُ بلد أجنبى بعيد، ولم تكن تعاليم الإسلام قد توغلت فى بلاده، ومن ثم أراد من خلال معرفته بـ"أسكيا" أن يُعلمه مبادىء الشرع، وأن ينشر العلوم الإسلامية بين شعب التكرور، وأن يُنقى ما راج بينهم من البدع[116].

ويرى الباحثُ أن علاقة الود التي جمعت بين كل من السيوطى وملك التكرور كانت الغايةُ منها في المقام الأول أن تكون خدمةً لدين الله، لاتقرُبًا من هذا السلطان، فليس هذا طريق "السيوطي"، ولا منهجه في التعامل مع الحكام والسلاطين، كما أوضحنا ذلك آنفًا[117]. وعلى أية حال تتحدث المصادر في "السودان الغربي" عن تلك الصداقة الاستثنائية، حيث أشار المؤرخون لما كان يجمع بينهما

---

[114] **يرى البعض أن اسم "بلاد التكرور" يشير الى تعيير غير واضح وملتبس، وكان يستخدم في الغالب بكثير من التساهل للدلالة على أقاليم متباعدة وشعوب متباينة، وهذه التسمية أطلقها في الأصل بربر صنهاجة، وكان ذلك الاسم يطلق في البداية على التجمعات القروية في هذه البلاد لاسيما في تلك التجمعات التي كانت توجد في إحدى الامارات في أقصى شمال بلاد السودان الغربي غير بعيد عن مصب نهر السنغال. وكان قدم ملوك التكرور الذين اعتنقوا الإسلام يدعى وارجابي، ويعد أيضاً أقدم ملوك بلاد السودان الذين أسلموا، وكان ذلك قبل قدوم المرابطين الى هذه البلاد (للمزيد، انظر محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق وتعليق: عبدالودود ولد عبدالله وأحمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه للدراسات والطباعة والنشر، 2010م، ص12–13).**

[115] **السيوطي: لُب اللباب، ص174.**

[116] **الوفراني: نزهة الحادي، ص89.**

[117] **وربما يعضد هذا الرأي ما يقوله الوفراني: "ولقي بمصر شيخ الإسلام..السيوطي، فأخذ عنه عقائده، وتعلم منه الحلال والحرام.." (الوفراني: نزهة الحادي، ص89). وهو ما يؤكد أن أهل التكرور كانوا في حاجة لعلم الإمام السيوطي، وأن يصحح لهم أمور دينهم.**

من علاقاتٍ طيبة، يغلفها التقدير والاحترام من جانب ملك التكرور رغم عظم سلطانه ونفوذه، ومنهم: محمود كعت (ت: **1002هـ**) صاحب "الفتاش"[118]، و"أحمد بابا التنبكتي" (ت: **1036هـ**)، و"السعدى" (ت: **1065هـ**)، صاحب "تاريخ السودان"[119] و"الوفرانى" (ت: **1151هـ**) صاحب "نُزهة الحادي"، وغيرهم. ويذكر المؤرخون أن "أسكيا محمد" لقى السيوطى إبان رحلته للحج لما قدم على رأس موكبٍ مهيب من بلاد التكرور، حيث توقف بالقاهرة كعادة مواكب الحج القادمة من بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، ثم انتظر خروج موكب "الحج المصرى" الذاهب إلى بلاد الحجاز[120]. ومن الراجح أنه في هذا الوقت إلتقى ملك التكرور بالسيوطي حيث كان يتاح بضعة أيام أمام الحجاج الأفارقة حتى يتحرك "الموكب المصري"، وكانوا في الغالب يأتون قبل خروج الموكب بمدة، وربما قابله "أسكيا محمد" مرة أُخرى بعد العودة من مناسك الحج. يقول محمود كعت: "وتلقى (أسكيا محمد) بمصر سيدي عبدالرحمن السيوطي، وأخبره بما سيكون في بلاده.."[121]. أما السعدي، فيقول عن ذات اللقاء: "ثم لقي (أسكيا) كثيرًا من العلماء والصالحين، منهم الجلال السيوطي،

---

[118] **محمود كعت: هو صاحب كتاب "تاريخ الفتاش"، وهوالقاضى محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت، وهو من أصل وعكرى، كان يقيم فى تنبكت (تمبكتو)، وكان من المقربين من السلطان أسكيا محمد سلطان صنغى، ورافقه فى زيارته الى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج، ورافقه فى زيارته لمصر (انظر: نبيلة حسن محمد : تاريخ أفريقيا الاسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2009م، ص21–25).**

[119] **السعدى: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدى (أو السعدى) ، ينتسب لقبيلة بنى سعد، وقيل: نسبة للأمراء السعديين حكام مراكش. تولى وظيفة الامام فى الصلاة بمسجد سنكرى سنة 1046هـ فى جنى، ثم عزل قسرا، وعاد مرة أخرى الى تنبكت ، ثم تولى وظائف رفيعة فى بلاده. اشتهر بكتابه "تاريخ السودان" الذى يعد أحد المصادر الهامة فى تاريخ بلاد السودان الغربى (التكرور) (نبيلة حسن: تاريخ أفريقيا الاسلامية، ص25–29). إبراهيم طرخان: دولة مالى الاسلامية (دراسات فى التاريخ القومى الإفريقى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.**

[120] **الوفرانى: نزهة الحادى، ص89.**

[121] **محمود كعت: تاريخ الفتاش، مطبعة بردين، 1913م، ص68.**

وسألهم عن أشياء من أموره، فأفتوه فيها، وطلب منهم الدعاء، فنال بركتهم كثيرًا.."[122].

بينما يقول "الوفرانى" في روايته: "ولقى (أى أسكيا) بمصر الإمام، شيخ الإسلام..جلال الدين السيوطى.."[123]. وقد استمع ملك التكرور للسيوطي، وانبهر به، وبفيض علمه، ولهذا تعلم على يديه، وتذكر المصادر أن السلطان "أسكيا محمد" أخذ عن العالم المصري المعروف أمور العقائد، وتعلم منه ما يختص بأمور الحلال والحرام في الشرع الإسلامي، وسمع جُملاً من آداب الشريعة، وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه[124]. وهو ما يُشير الى مدى تأثر هذا السلطان الأفريقي المسلم بالإمام السيوطى، وبعلمه، ولهذا تذكر المصادر السودانية أن لما عاد إلى بلاده، سار "أسكيا محمد" على طريق السُنة، وهدى النُبوة "وأحيا طريق العدل في حكم الرعية، كما أن أسكيا محمد مال للسيرة العربية، وعدل عن سيرة العُجم"[125].

وتشير إحدى المخطوطات الى أن السلطان "أسكيا محمد" أراد أن يعطى "السيوطي" بعض المال مكافأة له، وبقدر ما استفاد ملك التكرور من علمه، فرفض العالم المصري بشدة قبول هذا المال، واعتذر له، تقول هذه المخطوطة: "ثم جاءه بمال عظيم من الذهب، فأبى (السيوطي)، واعتذر.."[126]. وتزعم ذات المخطوطة أن "السيوطي" أخبر "أسكيا محمد" باليوم الذي سوف يموت فيه، بل وحدده له: "وأخبر

---

[122] السعدي: تاريخ السودان، مطبعة بردين، 1898م، ص73.

[123] تذكر المصادر السودانية أن أسكيا محمد جاء في موكب قرابة 1500 شخص، كان منهم 500 من الفرسان، والجند، ونحو ألف شخص من الحجيج السودانيين، وكان من بينهم ابنه أسكيا موسى، وكبار رجال البلاط، والعلماء، والقضاه..الخ، وقد حمل أسكيا معه نفقات رحلته، وتقدر بحوالي 300 ألف ذهبًا. وقد تصدق بثلث هذا المال في بلاد الحرمين، وبثلث اشترى ما يحتاج إليه (السعدي: تاريخ السودان، ص73).

[124] الوفرانى: نزهة الحادى، ص89.

[125] المصدر السابق، ص90.

[126] للمزيد عن هذه المخطوطة، انظر الهادى المبروك الدالى: المرجع السابق، ص191.

جلال الدين السيوطى السلطان أنه مقتول فى الوقت الفلانى.."[127]. ويرى الباحثُ أنه هذه الرواية غير صحيحة، لأن فيها تجاوز على السيوطي، وأنه يزعم معرفة أمور الغيب، وهو أمرٌ لايصح من أي مسلم، وهو مكروه أشد الإكراه في الإسلام بلاريب، ولايمكن أن يقع فيه من كان في مكانة السيوطي العلمية.

ثالثًا- رحلة السيوطي إلى بلاد التكرور:

تُشير المصادرُ القليلة إلى قيام الإمام "السيوطي" برحلة علمية مهمة إلى بلاد التكرور، أو "بلاد السودان الغربي"، كما أنه زار أيضًا بلاد الهوسا، وغيرها من الممالك الأفريقية الإسلامية الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى[128]. ويذكر "السيوطي" فى ترجمته أنه ذهب إلى "بلاد التكرور"، حيث يبدو من كلامه بشكل واضح لا لبس فيه أنه كان من مُحبى الأسفار، والرحلات، وأنه زار الكثير من بلدان الدنيا، شرقًا وغربًا: "**وسافرتُ بحمدِ الله تعالى إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور..**"[129]. ويرى الباحثُ أن ما يذكره "السيوطي" يُشير إلى أنه كان يذهب في الغالب في بعض الرحلات إلى بلاد الله لينشر العلم بين شعوب المسلمين، فهذا مأرب "السيوطي" الرئيس، وغايته الكبرى فيما يبدو لنا. ومن اللافت أنه رغم تأكيد "السيوطي" ذاته على قيامه بزيارة بلاد التكرور، إلا أن البعض ربما قد يُشكك فى ذهابه إلى تلك البلاد البعيدة، رغم أن "السيوطي" كان قد زار بلادًا أبعد منها، مثل بلاد الهند لاسيما وأنها لم يرد عنها شيء في المصادر السودانية. ومن المعلوم أن أولى الرحلات التي قام بها "السيوطي" كانت إلى بلاد الحجاز، وكان

---

[127] **الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص191.**

[128] **ابراهيم طرخان: المرجع السابق، ص12.**

[129] **السيوطى: حسن المحاضرة، جـ1، ص290.**

المأرب منها في الغالب القيام بمناسك الحج، ونشر علوم الدين[130]، وكانت هذه الرحلة في شهر ربيع الآخر، سنة **896هـ**، وجمع "السيوطي" فوائد تلك الرحلة الحجازية في كتاب دعاه: "النِحلة الذكية في الفوائد المكية"[131]. وتُشير بعضُ الروايات من جانب آخر، إلى أن "السيوطي" أخبر "ملك التكرور" (أسكيا محمد) بأنه سوف يكون عظيم المُلك، وستمتد تخوم مملكته، وربما قال ذلك بسبب ما لاحظه "السيوطي" من تدين هذا الملك، وحُسن أخلاقه، وعدله، واحترامه لأهل العلم، وتقديره لهم، والحرص على أخذ مشورتهم، يقول المؤرخ "الوفراني": "وكان الحاج محمد (أسكيا) رقيق القلب، خافض الجناح، شديد التعظيم لأئمة الدين، محبًا للعلماء، مكرمًا لهم غاية الإكرام"[132]. وعلى هذا صارت بينهما صداقةٌ قوية، قويت عُراها بمرور الوقت، حتى أن ملك التكرور فيما يُقال كان لايُقبل على إبرام أمرٍ مُهم فى بلاده، إلا بعد أن يطلب مشورة الإمام "السيوطي"[133]. ومن أدلة ذلك، تذكر المصادر التاريخية أن "أسكيا محمد" كان قد فرض على أهل التكرور بعض المغارم، والضرائب، فسخط البعضُ بسبب ذلك[134]. وقد برر "أسكيا محمد" للناس ذلك الذي قام به، وبأنه ما فعل هذا إلا بعد أن استشار الإمام "السيوطي" في هذا الأمر[135]، فإلى هذا الحد بلغت العلاقة بين كل من السيوطي وملك التكرور.

ويرى الباحثُ أن هذا الخبر الذي تذكره المصادر يؤكد أن استشارة "ملك التكرور" للسيوطي في أمر الضرائب كان خلال وجود العالم المصري في بلاد

---

[130] **السيوطي: الثبوت (ترجمة السيوطي)، ص3.**

[131] **المصدر السابق، ص3.**

[132] **الوفراني: نزهة الحادي، ص90.**

[133] **الوفراني: المصدر السابق، ص90، وانظر أيضا إبراهيم طرخان: دولة مالى الاسلامية (دراسات فى التاريخ القومى الإفريقى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973 م، ص12.**

[134] **الوفراني: المصدر السابق، ص90.**

[135] **المصدر السابق، ص90.**

التكرور، إذ ليس من المنطقي أن يرسل "أسكيا محمد" برسالة للعالم المصري عبر آلاف الكيلومترات ليسأله عن إمكانية فرض الضرائب على الرعية، وهذا الخبر يؤيد بقوة أن "السيوطي" كان بالفعل في بلاد التكرور في ذلك الوقت. وعلى أية حال فمن المؤكد تاريخيًا أن السيوطي زار "بلاد التكرور"، وهو ما تؤكده بعض الإشارات الواردة في المصادر، إضافة لتأكيد السيوطى ذاته على أنه قام بتلك الزيارة في ثنايا ترجمته، ولاريب أن ذلك الذي يذكره "السيوطي" يُعتبر من أقوى الأدلة على ذلك الطرح الذي تقوم عليه فكرة هذه الورقة، فهذا قول صاحب الشأن ذاته، ومن ثم تأكيده بشكل واضح عى قيامه بزيارة بلاد التكرور، رغم عدم شهرتها في المصادر السودانية، وعدم الحديث عنها، وعن أخبارها في ثنايا المصادر السودانية فيما نعل. وممن أكد تلك الرحلة العلمية الفقيه "شمس الدين الداودى" (ت: **945هـ**)، وهو من تلاميذ السيوطي، حيث يُشير إلى أن الكثير من تصانيف شيخه ربما كتبها فى أسفاره: "وقد اشتهر أكثر مصنفاته فى حياته فى البلاد الحجازية، والشامية، وبلاد الروم، والمغرب، والتكرور، والهند، واليمن"[136].

ويذكر "الداودى" أنه من بين تلك البلاد التي زارها شيخه (السيوطي)، والتى صنف بها الكتب: بلاد التكرور. كما يؤكد قيام السيوطي بتلك الزيارة المؤرخ محمد عبدالله عنان، حيث يذكر: "وأنه (أي السيوطي) قام برحلات إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور"[137]، ومن الراجح أنه أخذ ذلك نصًا عما ورد فى ترجمة "السيوطى" في كتاب "حُسن المحاضرة". كما تحدث أيضا عن رحلة "السيوطي" لبلاد التكرور الدكتور إبراهيم طرخان، حيث يقول: "أشار السيوطى إلى رحلته إلى بلاد التكرور فى ترجمة لنفسه بكتابه حُسن المحاضرة.."[138]. كما

---

[136] **عنان: مؤرخو مصر الاسلامية، ص144.**

[137] **المرجع السابق، ص143.**

[138] **إبراهيم طرخان: دولة مالى الاسلامية، ص12.**

تحدث عن اللقاء الذي جمع بين السيوطي وملك التكرور أسكيا محمد في بلاد التكرور عددٌ من المستشرقين، وهو تأكيد قوي لقيام السيوطي بتلك الزيارة، ولعل من أبرزهم جـ. س. ترمنجهام الذي يذكر أن الإمام "السيوطي" لقي السلطان "أسكيا محمد" بمدينة "كاو كاو"، وهي من مدن غرب أفريقيا المعروفة[139]. كما يؤكد هذا المستشرق في ذات الوقت اهتمام "أسكيا محمد" بمقابلة كبار علماء المسلمين الآخرين في زمانه، فقد حرص على مقابلة الفقيه المعروف المغيلي (ت: **909هـ**)[140].

ويذكر بعض المؤرخين– من جانب آخر– أن السيوطى كان عالمًا يتمتع بمكانةٍ رفيعة فى بلاد غربى أفريقيا بصفة عامة، وكان اسمه معروفًا هناك[141]، وقد سافر السيوطي أيضًا إلى بلاد الهوسا[142]، وكذلك زار "كشنة"، ولعل المقصود بها بلاد "كاتسينا" **Katsina**، وقد قام بالتدريس بها، كما كان "السيوطي" صديقًا لملك هذه البلاد، ويدعى "إبراهيم ماجى"، وهو ينتسبُ لـ"أسرة كومايوه"[143]. وذلك الأمر

---

[139] **J. Spencer Trimingham: A History of Islam in West Africa, Oxford University Press, London, 1975. P. 98.**

[140] **J. S. Trimingham: Ibid, P. 98.**

المغيلي: هو الفقيه التلمساني الأصل، واسمه محمد بن عبدالكريم المغيلي (ت: 909هـ)، الذي نال شهورة واسعة بالسودان الغربي (بلاد التكرور)، وكان مقربا من السلطان أسكيا محمد. قال عنه أحمد بابا: "التلمساني، خاتمة المحققين، الامام العالم، الفهامة، القدوة، الصالح، السني، أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهموالتقدم، متمكن المحبة في السنة، وبغض أعداء الدين". وقد وقعت بينه وبين اليهود وقائع في السودان الغربي لاسيما بمدينة توات، لما رأى من فسادهم، وتسلطهم هناك، ومحاولتهم إقامة معبد لهم في هذه البلاد، ومحاولتهم السيطرة على التجارة الصحراوية (انظر أحمد بابا التنبكتي (1036هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جـ2، تحقيق:على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2015م، ص264–266).

[141] **ابراهيم طرخان: المرجع السابق، ص12.**

[142] **بلاد الهوسا: هى بلاد تقع شمال نيجيريا، وجنوب النيجر، وهي منطقة قامت بها عدة ممالك أو إمارات إسلامية أشهرها إمارة كانو، وكاتسينا، واليوروبا..الخ (وللمزيد عن بلاد الهوسا، انظر عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول السودانية بأفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1961م، ص191–192.**

[143] **إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص12.**

الذي يذكره بعض المؤرخين يؤد قيام السيوطي برحلته العلمية إلى بلاد السودان الغربي، أو بلاد التكرور. ولاريب أن الملوك في بلاد التكرور كانوا حريصين على دعوة كبار العلماء المسلمين للقدوم إلى بلادهم، مثلما دعا السلطان "منسا موسى" **(712-738هـ)** خلال رحلته للحج العالم الأندلسي "أباإسحاق الساحلى"[144] للقدوم إلى بلاده، ومن ثم الإقامة بها، وتلك كانت سُنةً طيبةً بالطبع أخذ بها السلاطين والحكام في هذه البلاد[145]. ويرجح الباحثُ أن زيارة "السيوطي" إلى تلك البلاد كانت قد تمت بعد رحلة حج "أسكيا محمد"، حيث توطدت خلالها وشائج العلاقة بينهما. ومما يلفت النظر في شأن رحلة السيوطي لبلاد التكرور، هو صمت المصادر السودانية المحلية عنها بشكلٍ لافت، رغم أن زيارة عالم كبير في قامته لهذه البلاد كان يجب أن تلقى اهتمام مؤرخي التكرور، وهو ما لايبدو بشكل واضح، وذلك عكس ما حدث مع زيارة الفقيه المغيلي **(ت: 909هـ)**، التلمساني الأصل، والذي نجد الكثير من الأخبار عنه في ثنايا المصادر السودانية[146]. ويرى الباحثُ أنه من غير المُستبعد أن الإمام السيوطي ذهب إلى بلاد التكرور إبان عودة السلطان "أسكيا

---

[144] أبواسحاق الساحلى: وهو مهندس معمارى، وشاعر، وعالم أندلسى شهير، قابله منسا موسى أيام رحلته للحج فى بلاد الحجاز، وأعجب به وبعلمه، فعرض عليه القدوم الى بلاده، والاقامة بها، وتعليم أهل التكرور. وقد رحب أبواسحاق بدعوة ملك التكرور، ورافقه فى رحلة العودة، وأقام في بلاد التكرور حتى وافاه الأجل هناك، ثم دفن فى بلاد التكرور. وقد استقر الساحلي في بلاد التكرور، ومات بها، وقبره في هذه البلاد، وكان قد رأى قبره الرحالة ابن بطوطة (ت: 779هـ) (ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ2، تحقيق: محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ، ص623).

[145] كان سلاطين السودان الغربي يحرصون على نشر العلم في بلادهم، ودعوة كبار العلماء في العالم الإسلامي لزيارة بلادهم، وكذلك حث العلماء على التأليف والتصنيف، يقول أحمد بابا عن منسا موسى سلطان مالي وطلبه من أحد العلماء تصنيف كتاب: "ومن شرحه لمختصر أبي الحسن الطليطلي الذي ألفه باقتراح الأمير موسى سلطان مالي ملك السودان.." (أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، جـ2، ص47).

[146] تحدثت عن رحلة المغيلي لبلاد السودان الغربي (بلاد التكرور)، وغيرها من البلاد والممالك الأفريقية العديد من المصادر المحلية هناك لعل أبرزها ما يذكر أحمد بابا التنبكتي (ت: 1036هـ) الفقيه التكروري المعروف، وقدم ترجمة مطولة عنه في كتابه نيل الابتهاج، وتحدث عن علاقة الفقيه المغيلي بالسلطان أسكيا محمد، وكذلك ما وقع بينه وبين يهود بمدينة توات (أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، جـ2، ص264).

محمد" إلى بلاده، وبعد أن أنهى مناسك الحج، ويبدو أن ملك التكرور طلب منه أن يرافقه في طريق العودة إلى بلاده، ومن ثم يمكن أن يستفيد هذا الملك من وجود "السيوطي" معه في عودته، وأن ينتفع بعلمه خلال رحلته الطويلة. ويبدو أن سلطان صنغى من فرط انبهاره بـ"السيوطي"، وغزارة علمه، وحكمته، وهو ما لم يجده فى غيره من العلماء الذين لقيهم فى رحلته إلى بلاد المشرق، ومن ثم دعاه لزيارة بلاده، ويبدو – فيما يرى الباحث – أن "أسكيا محمد" اشتد على العالم المصري (السيوطي) فى الإلحاح حتى يقبل ذلك نظرًا لبُعد بلاد التكرور عن أرض مصر.

رابعًا– أثر زيارة السيوطي العلمية لبلاد التكرور:

لاريب أن زيارة السيوطي إلى بلاد التكرور زادت من شهرته، وزادت من رواج كتبه، وأفكاره فى هذه البلاد، لاسيما بين طوائف العلماء، والفقهاء، وطلاب العلم من "التكاررة"، أي أهل التكرور. ويبدو أن هذه الزيارة كان لها صدى كبير بين علماء مصر، فشجعت البعض منهم على الذهاب لهذه البلاد. ومن المعلوم أن علماء التكرور، وفقهاءهم كانوا كثيري الأخذ عن مؤلفات "السيوطي"، ورواياته في العلوم الشرعية، وأفكاره، ولهذا يُذكر كثيرًا في كتابات العلماء، وكذلك المؤرخين السودانيين، فنجد الفقيه التكروري المعروف "أحمد بابا التُنبكتي" (ت: **1036هـ**) كثيرًا ما يذكر "السيوطي" في كتاباته، وأنه أخذ عنه الكثير من الأخبار والروايات، ومن ثم نراه يُكثر من ذكر تلك العبارات في مصنفاته، والاستشهاد بكلامه، ومنها: "وقال السيوطي.."[147]، كما يقول: "وذُكر في مُعجم السيوطي.."[148]، وغير ذلك من الدلالات الاستشهادية المهمة في التصنيف. وقد بلغ التقدير ببعض مؤرخي التكرور

---

[147] **أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج، جـ2، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص123.**

[148] **أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ1، ص215.**

أنهم كانوا يظهرون التقدير للسيوطي عند الحديث عنه في رواياتهم، حيث يذكره البعض منهم بقوله: "سيدي عبدالرحمن السيوطي.."[149]، وهو ما يُشير لمدى احترامهم وتقديرهم لهذا العالم المصري ذائع الصيت في ذلك الوقت.

وقد قام علماء التكرور الكبار بمراسلة الإمام "السيوطى"، كما كانوا يقومون بتدريس كتبه فى بلادهم، ومنهم من قام بعمل شروح لكتبه، ومن ذلك قيام "أحمد بابا التنبكتي" بتأليف شروح لـ"ألفية السيوطى"، وقد سماها: "المِنَح الحميدة فى شرح الفريدة"[150]. كما قام العديدُ من علماء "أسرة أقيت" – وهي أشهر الأُسر العلمية في بلاد التكرور – بعمل شروح عدة لكتبه. كما كان علماء التكرور حريصين على لقاء "السيوطي"، وأخذ العلم عنه خاصة خلال توقفهم بمدينة القاهرة إبان رحلة الحج، وهو الأمرُ الذي نراه جليًا في روايات المصادر السودانية، ومن ذلك لقاء الفقيه التكروري أحمد بن عمر أقيت (ت: **942هـ**)[151] بالسيوطي بمدينة القاهرة، ويقول أحمد بابا عن ذلك: "ثم ارتحل (أحمد بن عمر) للشرق، فحج عام تسعين وثمانمائة، ولقي الإمام جلال الدين السيوطي.." [152]. ومنهم أيضًا الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي (ت: **909هـ**)، فرغم أنه تلمساني الأصل، إلا أنه رحل إلى بلاد التكرور، وذاعت شهرته هناك[153]. وقد جمعت المراسلات العلمية بين كل من السيوطي والمغيلي، يقول أحمد بابا: "ووقع له (أي المغيلي) مراسلة مع الجلال السيوطي.." [154]. كما أخذ

---

[149] **محمود كعت: تاريخ الفتاش، ص68.**

[150] **الهادى المبروك الدالى: المرجع السابق، ص191.**

[151] **اسمه كاملا: أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي، المعروف بلقب: الحاج أحمد، وهو ينتسب لأسرة علمية معروفة في بلاد التكرور، وهي أسرة أقيت، وكان أكثر قضاة تنبكت من هذه الأسرة (للمزيد عن ترجمته، انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جـ1، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، 2015م، ص147–148).**

[152] **أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، جـ1، ص148.**

[153] **للمزيد عن ترجمته، انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، جـ1، ص264–266.**

[154] **المصدر السابق، ص267.**

الفقيه "العاقب الأنصمني" (ت: بعد سنة **950هـ**) عن السيوطي، وغيره من العلماء المصريين[155]. كما كان علماء التكرور يبعثون للسيوطى بالأسئلة الفقهية والفتاوي التي اختلفوا في أمرها، وليسألوه عما شق عليهم من أمور الدين.

وقد صنف السيوطى فى تلك المراسلات التي تمت بينه وبين علماء التكرور رسالةً فقهية شهيرة، ضمنها أجوبته على علماء التكرور، وتساؤلاتهم، ودعاها: "**فتح المطلب المبرور، وبرد الكبد المحرور، فى الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور**"[156].

وفي موضع آخر من كتاب السيوطي عن إحدى الرسائل الفقهية التي أرسلها لأحد علماء بلاد التكرور، وجعلها بعنوان: "**مطلب الجواب بفصل الخطاب**"[157]. وكانت تلك الرسالة ردًا من السيوطي على أسئلة الفقيه: شمس الدين بن محمد اللمتوني[158]. ويُمكن أن يُفهم من كلام السيوطي لهذا العالم التكروري أنه يعرفه معرفةً شخصية، وهو ما يبدو واضحًا من صيغة الحديث بينهما، ومقدار الود الذي يحمله له السيوطي من كلامه، ومن ذلك نعت السيوطي له بالحبيب، والأخ، ووصفه بالصلاح، وكذلك تقدير السيوطي لعلم هذا الفقيه، حيث يقول في وصفه: "الشيخ، العالم، الصالح.."[159]. وربما يشير ذلك إلى أن العلاقة بينهما زادت ارتباطًا بعد زيارة

---

[155] واسمه: العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي، وهو من أهل تكدة، وهي من مدن بلاد السودان الغربي (أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ1، ص294–295).

[156] توجد هذه الرسالة التي تضم فتاولا الإمام السيوطي ضمن كتافه المعروف "الحاوي للفتاوي"، للمزيد عن ذلك انظر السيوطي: فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، فصل من كتاب الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م، ص291.

[157] السيوطي: فتح المطلب المبرور، ص284.

[158] يقول السيوطي عن هذا العالم التكروري: "من الفقير عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد...بن همام الخضيري السيوطي الشافعي إلى حبيبه وأخيه في الله الشيخ العالم الصالح شمس الدين محمد بن علي اللمتوني أعزه الله تعالى في الدارين، وأزال عن قلبه كل رين..." (السيوطي: فتح المطلب المبرور، ص291).

[159] السيوطي: فتح المطلب المبرور، ص291.

الإمام السيوطي لبلاد التكرور، وهو ما يبدو أيضًا من سياق هذه الرسالة. وحسب متن تلك الرسالة، يذكر السيوطي أنه كتبها للفقيه اللمتوني في شوال سنة **898هـ**[160]، وهو ما يعني أن الزيارة كانت فيما يبدو قبل هذه السنة.

وغني عن القول أن الإمام "السيوطي" كانت له رسالةٌ فقهيةٌ أخرى لأهل التكرور، وحكامها، وقد دعاها باسم: "**رسالة إلى ملك التكرور**"، وهي عبارةٌ عن مخطوط محفوظ بـ"دار الكتب المصرية"[161]. وكانت هذه الرسالة موجهة في الغالب للسلطان "أسكيا محمد"، وهي تتحدث عن الحكم الرشيد، وكيفية إقامة الحكام للعدل، واتباع القواعد الإسلامية، والشرعية القويمة لحكم البلاد والرعية[162].

ولاريب أن تلك الرسالة تؤكد على عُمق العلاقات، والصداقة التي جمعت "السيوطي" بملك التكرور، وكذلك أهل هذه البلاد. ومن اللافت أنه حتى بعد وفاة "السيوطي" سنة **911هـ**، كان علماء التكرور يحرصون على لقاء تلاميذ هذا الإمام بالقاهرة خلال رحلة الحج[163]. ومن ذلك يذكر صاحب "فتح الشكور" أن الفقيه التكروري المعروف "أحمد بن أحمد بن عمر أقيت" (ت: **991هـ**)، وهو والد الفقيه التكروري "أحمد بابا التنبكتي"، أنه ذهب إلى مصر في رحلة علمية، حج خلالها، وقد التقى فيها بعلماء مصر، وكان من بينهم تلاميذ السيوطي: "ورحل للشرق سنة ست وخمسين، فحج، وزار، واجتمع بجماعة كالناصر اللقاني، والشريف يوسف تلميذ السيوطي.."[164].

---

[160] **المصدر السابق، ص284.**

[161] **هذه المخطوطة تحت رقم: 416، مجاميع ميكروفيلم رقم 4579، ورقة 139، دار الكتب المصرية بالقاهرة (انظر سحر عنتر محمد أحمد مرجان: فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2011م، ص268).**

[162] **سحر عنتر محمد: المرجع السابق، ص268.**

[163] **البرتلي: فتح الشكور، ص55.**

[164] **البرتلي: المصدر السابق، ص55.**

الخاتمة:

وبعد هذه الإطلالة حول "إشكالية الرحلة العلمية للسيوطي إلى "بلاد التكرور"، وما قيل حولها، يُمكننا أن نخرج ببعض الاستنتاجات، ومنها:

– أكدت الدراسةُ أن العالم المصري "السيوطي" (ت: **911هـ**) كان قد قام بزيارة علمية إلى "بلاد التكرور"، أو "السودان الغربي"، وهو ما يذكره السيوطي في ترجمته في "حُسن المحاضرة"، كما أكد حدوث تلك الزيارة تلميذ الإمام "السيوطي"، وهو الفقيه "شمس الدين الداودي". وكانت في الغالب زيارة علمية الهدف منها نشر علوم الدين والشرع بين سكان التكرور.

– وأشارت الدراسةُ إلى أنه في الغالب أن الإمام السيوطي قام برحلته العلمية إلى بلاد التكرور بناء على دعوة من السلطان "أسكيا محمد" ملك التكرور، الذي قدم فيما يبدو دعوة له للذهاب إلى بلاد التكرور لينشر علوم الدين بين أهل هذه البلاد، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال روايات بعض المصادر، ومنها أن السلطان أسكيا محمد لما فرض على رعيته بعض المغارم (الضرائب)، تذكر المصادر أنه أخبر الرعية أن فرضه لتلك المغارم تم بعد أن قام بمشورة الإمام السيوطي في ذلك، وهو ما يؤكد وجود الفقيه المصري في بلاد التكرور إبان ذلك الوقت.

– لاتستبعد هذه الدراسة أن السلطان "أسكيا محمد" كان قد صحب معه السيوطي خلال رحلته للعودة إلى بلاده بعد أن أتم مناسك الحج في بلاد الحرمين، وكان ذلك في الغالب خلال توقفه بالقاهرة عائدًا من مناسك الحج، وكان ذلك أمرًا معتادًا من ملوك التكرور، فقد صاحب السلطان "منسا موسى" (ت: **738هـ**) "أباإسحاق الساحلي" معه لبلاده ليستفيد منه، ومن علمه.

– ولفتت هذه الدراسةُ الأنظار إلى أن المصادر السودانية لم تتحدث بشكل واضح عن زيارة السيوطي لبلادهم، رغم مكانته العلمية الكبيرة، وذيوع شهرته في العالم الإسلامي آنذاك، ولاندري هل أغفل مؤرخو السودان أخبار تلك الزيارة عمدًا، أم كان ذلك الأمر بمحض المصادفة.

– وأشارت الدراسةُ إلى أن رحلة السيوطي إلى بلاد التكرور زادت من شهرته، ومكانته العلمية في هذه البلاد، كما نتج عنها رواج مؤلفاته، ومصنفاته بين طلاب العلم في بلاد التكرور، وهو ما يبدو جليًا من خلال دراسة تراجم العلماء والفقهاء في بلاد التكرور، وقد كان تدريسهم لكتب السيوطي من الأمور المعتاد عليها في بلاد التكرور. كما جمعت بين السيوطي وعلماء التكرور علاقاتٌ قوية، وكان علماء هذه البلاد يحرصون على زيارة السيوطي خلال رحلاتهم للحج، كما كانت المراسلات العلمية بين السيوطي وعلماء التكرور لاتنقطع.

ملامح من التواصل الحضاري

بين مصر وشعوب غرب أفريقيا في العصر الإسلامي

ملامح من التواصل الحضاري

بين مصر وشعوب غرب أفريقيا في العصر الإسلامي

صارت مدينة القاهرة قبلة الزُوار القادمين لمصر من كل بقاع القارة الأفريقية خلال "التاريخ الوسيط" لاسيما بعد أن انتقلت "الخلافة الإسلامية" إليها أيام المماليك **(648-923هـ)**. كما ازدادت أهميةُ المدينة، وذاع صيتُها في شتى بلاد العالم الإسلامي، بفضل عدة عوامل منحتها تلك الخُصوصية بين سائر المدن الإسلامية آنذاك، ولعل منها: "رحلة الحج" التي كان يقوم بها الحُجاج الأفارقة إلى الحجاز، وكان عليهم أن يتوقفوا بالقاهرة انتظارًا لـ"موكب الحج" المصري، وكذلك بفضل "الأزهر الشريف" الذي أضحى منارة العلم والعلماء في العالم الإسلامي منذ تأسيسه سنة **359هـ**، وكان ذلك في ذات السنة التي بُنيت فيها القاهرة[165].

وكان أهلُ السودان الغربي، وشعب التكرور، ويُقصد بهم في الغالب سكان غرب أفريقيا في العصر الإسلامي، من أكثر شعوب الممالك الأفريقية في جنوب الصحراء الكبرى التي ارتبطت بعلاقات تواصل حضاري مع مصر، حيث أقبل سكان تلك البلاد على القدوم إلى مدينة القاهرة في طلبً للحج، أو طلبًا للعلم، أو

---

[165] تذكر المصادرُ أن بناء "الجامع الأزهر" بدأ في سنة 359هـ على يد القائد "جوهر الصقلي"، وانتهى البناء في شهر رمضان سنة 361هـ (المقريزي: المواعظ والاعتبار (خطط المقريزي)، جـ4، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص49). وللمزيد عن تأسيس القاهرة، والأزهر الشريف، السيوطي: حُسن المحاضرة، جـ1، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص221-222، وانظر سعاد ماهر: مساجد مصر وأوْلياؤها الصالحون، جـ1، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2009م، ص165 وما بعدها، انظر عبدالعزيز محمد الشناوي: الأزهر جامعًا وجامعة، جـ1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م، 21-23.

لمآرب أخرى، ومن ثم استقرت أعدادٌ كبيرةٌ منهم بالقاهرة وكونوا جالية سودانية كبرى، ومن ثمة صار لهم حيٌ حمل اسمهم، وهو "حي التكرور"، أو "بولاق التكرور" الذي صار بعد ذلك: "بولاق الدكرور"، وغير ذلك من مظاهر التُراث التكروري الموجود بالقاهرة، ولعل هذا الموضوعُ الرئيس الذي نحاول الغوص في "تراث التكرور"، أو التراث الأفريقي بصفة عامة، وإماطة اللثام عما تركته تلك الشعوب الأفريقية المسلمة من تأثيراتٍ جلية لاتُحطئها العين في هذه المدينة الإسلامية العتيقة، وهو ما يُضيف تنوعًا ثقافيًا، وتراثيًا، وكذلك ديموجرافيًا فريدًا بمدينة القاهرة، وهو ما يشهدُ دون مراء لهذه المدينة العظيمة، وأهلها بمقدرة لافتة على احتواء الآخر. ولعل من أبرز ملامح التواصل الحضاري والثقافي بين مصر وشعوب غرب أفريقيا، وهي:

1- الجاليات الأفريقية بالقاهرة وتأسيس حّي بُولاق التَكرور:

شهدت العلاقاتُ بين كلٍ من حكام مصر من جانبٍ، وبلاد التكرور وملوكهم، وكذلك شعوبهم من جانب آخر تطوراً لافتًا إبان "العصر الإسلامي"، ويُعتبر عصرُ سلاطين المماليك (648-923هـ) من أكثر العصور الإسلامية ازدهاراً في مصر، وكذلك في بلاد الشام، حيث انتقلت "الخلافة العباسية" في ذلك الوقت لمدينة القاهرة أيام السلطان "الظاهر بيبرس" (658- 676هـ)، وسبب ذلك سقوط بغداد عاصمة الخلافة (العباسية) على أيدي المغول (التتار) سنة 656هـ، ومن ثم صارت القاهرة أيام دولة المماليك الحاضرة الكُبرى للإسلام"[166].

---

[166] **وعن سقوط مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وما وقع بعدها، يقول السيوطي: "ولما أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة (المستعصم)، وجرى ما جرى، اقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف..فلما كان في رجب من هذه السنة قدم أبوالقاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله، وهو عم الخليفة المستعصم.. وكان معتقلا ببغداد، ثم اطلق..ثم قصد الملك الظاهر (بيبرس) حين بلغه ملكه، فقدم عليه الديار المصرية..وكان دخوله إلى القاهرة في ثاني رجب، فخرج السلطان للقائه..وكان يوما مشهودا..فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب، جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل.." (السيوطي: حسن المحاضرة، جت2، ص69-70).**

ولعل كلام ابن خلدون (ت: 808هـ) لما وصل القاهرة للمرة الأولى: "فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك.."[167]. كما لعب الأزهر دورًا مهما في تأكيد مكانة القاهرة في ذلك الوقت، حيث صارة منارة العلم والعلماء آنذاك[168]. ومن ثم كان العلماء وطلبة العلم يحرصون على القدوم إلى القاهرة، ومنهم من آثر الاستقرار بها، وكان منهم بالطبع طلاب العلم القادمين من "بلاد التكرور". ومن جانب آخر كان موكب الحج المصري يستقطب أعدادًا كبيرة من شعوب أفريقيا للقدوم إلى القاهرة لمرافقة موكب الحج.

ويرى الباحثُ أن "التكاررةُ" (أو التكارنة)، وهم سكان "بلاد التكرور"، كانوا من أكثر الشعوب التي كانت تسكن الممالك الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى حرصًا على الاستقرار بالقاهرة مدة من الزمن، وذلك يبدو جليا من خلال الجاليات التكرورية التي أقامت بالقاهرة. وكانت تلك المدة تختلف حسب كل واحدٍ منهم، والغاية التي جاء من أجلها، فمن هؤلاء "التكاررة" من أتى مرافقاً لـ"موكب الحج" المصري الذي كان يبدأ من القاهرة، ومن ثم يذهب تحت إمرة "أمير الحج" إلى بلاد الحرمين الشريفين[169]. بينما كان البعضُ الآخر من شعب التكرور يأتي للقاهرة من أجل طلب العلم، وليأخذ العلوم الدينية والشرعية على أيدي كبار علماء مصر الذين يصفهم ابنُ خلدون بأنهم كواكب الدنيا[170].

---

[167] ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ص264. بل قا ا خلدون أيضا عن القاهرة:"من لم يرهالم ير عز الإسلام.." (ابن خلدون: التعريف، ص265).

[168] المقريزي: الخطط، جـ4، ص52-54، وللمزيد، انظر السيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص221.

[169] عبدالرحمن زكي: تاريخ الدولة الإسلامية السودانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1961م، ص106-107.

[170] ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص264.

وقد كان من "التكاررة" من يُؤثر الإقامة بالقاهرة بعد ذلك، ومن ثم لم يعد إلى بلاده مرة أُخرى. وعلى هذا، تكون بمرور الوقت مجتمعٌ غير قليل، أو لنقل "جاليةٌ" مُعتبرةٌ من أهل التكرور بمدينة القاهرة، وزاد اندماج "التكاررة" بأهل مصر لاسيما بالقاهرة التي آثرها أكثر أهل التكرور أكثر من غيرها من مدن مصر. ومن ثم كان منطقيًا أن يترك هؤلاء "التكاررة" تراثًا أفريقيًا إسلاميًا اضحا بمدينة القاهرة، وقد كانت ولاتزال لهؤلاء "التكاررة" جوانبٌ من تُراثهم الأفريقي الأصيل شاهدةً عليهم، وعلى تأثيرهم في المجتمع المصري عبر الحقب الإسلامية المتعاقبة، وحتى يومنا هذا، ومن ثم وجد بالقاهرة حيًا يحمل اسم "التكرور"، ومساجد، وكذا أضرحة لثُلةٍ من أعلام التكاررة الذين استقروا بالقاهرة..الخ.

وقد تركز كثيرون من "التكرور" في الغالب فى أحد أحياء القاهرة أكثر من غيره، وقد صار بذلك الحي "جاليةٌ تكرورية" غير قليلة، ولهذا صار هذا الحي بالقاهرة يُعرف بـ"حى التكاررة"، أو "حى التكرور"، وهو ذاتُ الحي الذى أضحى بعدئذ يُعرف باسم: "بولاق التكرور"، أو "بولاق الدكرور"، أو "الدكروري"، وحتى يومنا هذا. ويذكر "المقريزي" (ت: 845هـ) هذا الحي باسم "بولاق التكروري"[171]، وكذلك يذكره غيره من مؤرخي الخطط مثل "على باشا مبارك" (ت: 1893م) الذي يتحدث عن هذه الحي في خُططه المعروفة بذات الاسم[172]. وللتأكيد على ارتباط هذا الحي بالتكرور، تُشير المصادرُ إلى أن اسم هذا الحي (أي: بولاق التكروري) اشتُهر بذلك نسبةً لأحد الشيوخ من "أصول تكرورية"[173]. وعن حي "التكاررة" بمدينة القاهرة،

---

[171] المقريزي: خطط المقريزي، جـ4، ص133.

[172] على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33. ومن الواضح أن علي باشا مبارك استعان بالعديد مما ورد في رواية المقريزي فيما يخص حي بولاق التكرور، وسبب تسميته بهذا الاسم، وعن ذلك الحي يقول على باشا مبارك: "بولاق التكرور، قرية قريبة من الجيزة، وكانت تعرف بمنية بولاق، ثم عرفت ببولاق التكرور بسبب أنه كان نزل بها الشيخ أبومحمد يوسف التكرور..".

[173] على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33.

يقول المقريزي: "ناحية بولاق التكرور، وهذه الناحية من جملة قرى الجيزة، كانت تُعرف بمنية بولاق، ثم عُرفت ببولاق التكرور.."[174].

وتؤكد روايةُ المقريزي، وغيرها من روايات المصادر الأُخرى، انتساب هذا الحي، وتسميته نسبة لأحد "التكاررة" الذين كانوا قد استقروا بالقاهرة، وتحديدًا المنطقة التي عُرفت بعد ذلك بـ"بولاق التكرور"، وكان هذا الشيخ يُدعى باسم: "أبومحمد يوسُف بن عبدالله التكرورى"، وكان في الأصل من سكان "بلاد التكرور"، ثم قدم إلى أرض مصر أيام "الدولة الفاطمية" (358-567هـ)، ثم طاب المُقام للشيخ "يوسف التكروري" بمدينة القاهرة، وآثر أن يُقيم بها بعدئذٍ، وألا يعود لبلاد "التكرور" مرةً أُخرى، ثم حملت هذه المنطقة التي استقر بها، هو وغيره من "التكاررة" باسم بلادهم[175]. وسوف نُفيض في الحديث عن حياة الشيخ التكروري بعد ذلك خلال حديثنا عن علماء التكرور ممن أقاموا بالقاهرة، وكذلك في حديثنا عن مسجده، وضريحه. ومن جانبٍ آخر فقد انخرط الكثيرون من أهل "التكرور" بشتى مجالات الحياة في مصر، ويمكن القول بأنهم تمصروا، وأضحوا مصريين بمرور الزمن رغم أصولهم "التكرورية"[176].

وكان من أهل "التكرور" من انضم للخدمة في الجيش، ومن أبرز تلك النماذج التكرورية التي تمصرت قلبًا وقالبًا إذا جاز لنا القول، شخص يُدعى باسم: "عنبر التكرورى"، وكان يعيش أيام عددٍ من سلاطين المماليك، مثل: السلطان "جقمق" (1438-1453م)، والسلطان "الأشرف قايتباى" (1468-1498م). وترقى

---

[174] المقريزي: خطط المقريزي، جـ4، ص133.

[175] المقريزي: المصدر السابق، ص133. وللمزيد عن الشيخ التكروري، انظر على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33.

[176] ابن إياس: بدائع الزهور، جـ3، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م، ص321.

"عنبر التكروري" حتى صار مقدماً في الجيش[177]. ويرى الباحثُ أن "عنبر التكروري" كان جيلاً متأخرًا من "التكاررة" الذين استقروا بمصر، أي أن أجداده كانوا قد هاجروا إلى مصر، وعاشوا بها مدةً من الزمن، ثم ولد "عنبر" بعد ذلك بمصر لأسرة تكرورية الأصل، ولانعلم على أية حال إلى الأجيال التكرورية المهاجرة ينتسب. وعلى أية حال تذكر المصادر أنه انضم للجيش المصري، وخدم به، ومن ثم أظهر براعة في خدمته، ثم ترقي في الدرجات العسكرية العليا[178].

ورغم ذلك الامتزاج بين أهل التكرور والمصريين، إلا أن "التكاررة" احتفظوا في ذات الوقت باسم "التكرورى" تأكيدًا على أصولهم الأفريقية. وعن شخصية "عنبر التكروري"، يقول "ابن إياس" (ت: 930هـ): "وفى شوال، قرر عنبر التكرورى فى نيابة تقدمة المماليك، ثم بقى من بعد ذلك مُقدم المماليك.."[179]. وكان ايضا من كبار القادة في الجيش من الأصول التكرورية خالص التكروري، وكان نائبا لمثقال الظاهري الحبشي، وكان مقدما للماليك السلطانية، وكانوا يتلون تلك المناصب أيام السلطان المملوكي أبوالنصر قايتباي[180].

2- قُدوُم عُلماء السودان الغربي إلى القاهرة:

---

[177] ابن إياس: بدائع الزهور، جـ3، ص321.

[178] المصدر السابق، ص321.

[179] المصدر السابق، ص321. ومن المعروف أن ظاهرة وجود جاليات أفريقية بمصر، واستقرارهم بها يوجد أيضا من خلال الأسماء الأفريقية العديدة التي تحملها مثير من العائلات ذات الأصول الأفريقية بمصر، ولعل منها: الجبرتية التي ينتسب لها المؤرخ المصري المعروف عبدالرحمن الجبرتي الذي عاش ما بين القرنين 18 و19 الميلاديين، وكانت أسرته من إقليم جبرنة، وهو من أقاليم بلاد الزيلع بالقرن الأفريقي. وعلى ذات السياق عائلة السنارية التي تنتسب لأسرة من سنار عاصمة بلاد الفونج الإسلامية التي تأسست أوائل القرن 10هـ/16م في السودان الحالي، أو سودان وادي النيل.

[180] ابن الصيرفي (ت: 900هـ): إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق: الدكتور حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص4.

ربطت العديدُ من الوشائج العلمية بين علماء بلاد السودان الغربي (أو علماء التكرور) والعلماء المصريين، وكان علماءُ "التكرور" يحرصون على التواصل العلمي مع علماء مصر الذين ذاع صيتهم في ربوع العالم الإسلامي إبان حقبة "العصر الوسيط". وتتحدث المصادرُ عن عدد من علماء السودان الغربي الذين نالوا العلم بمصر[181]. كما أن عددًا منهم كان يحرص على التواصل مع كبار العلماء بمصر، فكان علماءُ السودان الغربي يرسلون بما يعنُ لهم من تساؤلات فقهية وشرعية لعلماء مصر حتى يفتوهم في تلك الأمور، وذلك لثقة علماء التكرور بالمصريين.

ومن المعروف أن السلطان "أسكيا محمد" (899–935هـ) "ملك التكرور" كان قد أراد من الإمام "السيوطى" (ت: 911هـ)، وكان أشهر علماء مصر في ذلك الوقت، أن ينشر علمه فى "بلاد التكرور"، لاسيما وأن كتب "السيوطي"، ومصنفاته كانت رائجةً فى بلاده. وكان علماء التكرور يقومون بتدريس كتبه، ومنهم من قام بعمل شروح لكتب "السيوطي". ومن ثم كان من الطبيعي أن يقوم علماء التكرور الكبار بمراسلة الإمام السيوطى، ومن ذلك قيام الفقيه التكروري "أحمد بابا التنبكتي" بعمل شرح لـ"ألفية السيوطى"، وسماها باسم "المنح الحميدة فى شرح الفريدة"[182]. كما يتحدث المؤرخُ عبدالرحمن السعدي (ت: حوالي سنة 1655م)، صاحب "تاريخ السودان"، عن أحد علماء التكرور واسمه "العاقب بن عبدالله الأنصمني" بأنه أخذ العلم عن الإمام السيوطي[183]. وكان علماء التكرور يبعثون إلى السيوطى بالأسئلة الفقهية وتضم أمورًا شرعية، وكذلك كان بها بعض الفتاوى، وليسألوا عما شق عليهم من أمور الدين.

---

[181] أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المجلد الأول، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2015م، ص147–148، وانظر أيضا عبدالرحمن السعدي: تاريخ السودان، مطبعة بردين، أنجي، 1898م، ص41.

[182] الهادى المبروك الدالى: التاريخ الحضاري لأفريقيا ما وراء الصحراء، طرابلس، ط1، 2000م، ص191

[183] عبدالرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص41.

وقد صنف السيوطى فى ذلك رسالة شهيرة، ضمنها أجوبته على تساؤلات علماء التكرور، ودعاها باسم: "**فَتحُ المَطلَب المَبرور، وبَرد الكَبد المَحرور، فى الجوابِ عن الأسئلةِ الواردةِ من التكرور**"[184]. وفي موضع آخر من كتاب "السيوطي" عن هذه الرسالة الفقهية التي أرسلها لعلماء التكرور، وقد جعلها باسم: "**مطلب الجواب بفصل الخطاب**"[185]. وكانت تلك الرسالة ردًا من "السيوطي" على أسئلة الفقيه التكروري "شمس الدين بن محمد اللمتوني"[186].

ويُفهم من كلام السيوطي لهذا الفقيه (التكروري) أنه فيما يبدو يعرفه معرفةً شخصية، وهو ما يظهر بشكلٍ واضح من صيغة الكلام بين كليهما، وكذا مقدار الود الذي يحمله له "السيوطي"، ونعوته، ولعل من ذلك قوله له بصفة الحبيب، والأخ، وكذلك وصفه له بالصلاح، وكذلك تقدير "السيوطي" لعلم الفقيه التكروري، حيث يقول في وصفه: "الشيخ، العالم، الصالح.."[187]. ويرى الباحثُ أن ذلك يُشير فيما يبدو إلى أن العلاقة بين العالمين المصري والتكروري كانت قد زادت ارتباطًا بعد أن زار "السيوطي" بلاد التكرور، وهو ما يذكره "السيوطي" في ترجمته المعروفة التي أوردها في كتابه "حُسن المُحاضرة"[(188)].

---

[184] **توجد هذه الرسالة التي تضم فتاوى الإمام السيوطي ضمن كتابه المعروف بـ"الحاوي للفتاوي" (للمزيد عن ذلك انظر السيوطي: فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، فصل من كتاب الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م، ص291).**

[185] **السيوطي: المصدر السابق، ص284.**

[186] **يقول السيوطي عن هذا العالم التكروري: "من الفقير عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد...بن همام الخضيري السيوطي الشافعي إلى حبيبه وأخيه في الله الشيخ العالم الصالح شمس الدين محمد بن علي اللمتوني أعزه الله تعالى في الدارين، وأزال عن قلبه كل رين.." (السيوطي: فتح المطلب المبرور، ص291).**

[187] **السيوطي: فتح المطلب المبرور، ص291.**

[188] **السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص290.**

وهو ما يبدو من سياق الحديث في هذه الرسالة الفقهية. وحسب هذه الرسالة، يذكر "السيوطي" أنه كتبها، وبعث بها إلى الفقيه التكروري في شهر شوال، من سنة **898هـ**[189]. وفي الغالب كانت تلك الزيارة العلمية فيما يرى الباحثُ بناء على دعوة من السلطان "أسكيا محمد" ملك التكرور لجلال الدين السيوطي، وهو ما شجع الفقيه المصري على القيام بهذه الرحلة العلمية. ومما لاريب فيه أن تلك الزيارة قد زادت من شهرة الإمام "السيوطى"، ورواج كتبه، وعلمه فى "بلاد التكرور".

ويبدو أنه كان لهذه الزيارة العلمية التي قام بها "السيوطي" إلى بلاد "التكرور" صدى كبيرًا بين كبار علماء مصر، فشجعت الكثيرين منهم على الذهاب إلى تلك المملكة الأفريقية النائية خدمة لدين الله، ولنشر العلوم الدينية والشرعية بين شعوب هذه البلاد المسلمة. ومن جانب آخر حرص كثيرون من علماء التكرور على القدوم لمدينة القاهرة، مدينة العلم في ذلك الوقت، وتعج كتب التاريخ التي دونها مؤرخو بلاد التكرور ذاتها بأسماء كبار العلماء في بلادهم الذين أقاموا بالقاهرة، وجاءوا طلبًا للعلم، وبالطبع كان الكثيرُ منهم يستفيد من رحلة الحج، وانتظار خروج "موكب الحج" من القاهرة للتعلم على ايدي علماء مصر[190].

ومن علماء التكرور الذين زاروا القاهرة الفقيه "أحمد بن عمر أقيت" (ت: 942هـ)، وهو من كبار علماء التكرور، وشغل منصب "قاضي تنبكت" (تمبكتو)، وكذلك "قاضي ولاتن"[191]، وهي من مدن التكرور المعروفة، وينتسبُ هذه الفقيه

---

[189] **المصدر السابق، ص284.**

[190] **أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، المجلد الأول، ص147–148، وانظر السعدي: تاريخ السودان، ص41.**

[191] **ولاتن: وتعرف أيضا باسم ولاتة، وايولاتن، وهي من المحطات التجارية المهمة في تجارة الصحراء، وهي تبعد عن سجلماسة (جنوب المغرب) حوالي شهرين سفر، أي أنها تبلغ حوالي 2400 كيلومتر بحساب أيامنا (ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، جـ2، ص608).**

لـ"أسرة أقيت" العلمية المشهورة، والتي أنجبت أشهر فقهاء وعلماء "تنبكت"[192]. وقد حج الفقيه التكروري سنة 890هـ، وأقام بمدينة القاهرة مدة، ولقي بها الإمام "السيوطي"، والإمام "الأزهري" النحوي المعروف، وغيرهما من كبار العلماء بمصر[193]. وعن قدوم هذا الفقيه التكروري لمدينة القاهرة، يقول السعدي: "شرَّق (أي ذهب لبلاد الشرق) في تسعين وثمانمائة، وحج، ولقي الجلال السيوطي، والشيخ خالد الوقاد (الأزهري) إمام النحو، وغيرهما.."[194].

ويقصد المؤرخ "السعدي" هنا أن الفقيه "أحمد أقيت" كان قد أخذ العلم عن الإمامين المعروفين "السيوطي"، و"الأزهري"، وكذلك عن غيرهما من كبار العلماء بمصر في أيامه. وكان من أبرز علماء التكرور الذين جاءوا لمدينة القاهرة أيضًا، الفقيه: "محمود بن عمر بن محمد أقيت (التنبكتي) (ت: 955هـ)، وهو أخو الفقيه "أحمد بن عمر أقيت" الأصغر[195]. ويُوصف بأنه كان من كبار "قُضاة تنبكت"، وأحد أعلام الفقه في بلاد التكرور[196]. كما أنه لعلو مكانته في بلاد التكرور حمل لقب: أبي البركات، وكذلك "شيخ الإسلام"[197]. وقد زار الفقيه "محمود بن عمر أقيت" القاهرة سنة 915هـ خلال رحلته للحج، والتقى بكبار علماء مصر آنذاك[198]. وكان

---

[192] وللمزيد عن ترجمته، انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جـ1، ص147–148. وتقع مدينتا تنبكت وولاتن (أو ولاتة) في دولة مالي حاليا.

[193] أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، جـ1، ص148.

[194] السعدي: تاريخ السودان، ص37.

[195] وللمزيد عن ترجمته، انظر أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، جـ2، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص252.

[196] يقول أحمد بابا التنبكتي عن قدومه للقاهرة: "وحج عام خمسة عشر وتسعمائة فلقي السادة الأجلاء كإبراهيم المقدسي، والشيخ زكرياء، والقلقشندي من أصحاب الحافظ ابن حجر، واللقانيين، وغيرهم.." (أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ1، ص253).

[197] السعدي: تاريخ السودان، ص76.

[198] أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ2، ص252.

قدوم هذا الفقيه التكروري للقاهرة في العام 15 من حكم أسكيا محمد (899–935هـ) سلطان صنغي، والمشهور بلقب "سلطان التكرور"[199].

ومن جانبٍ آخر، كان أمرًا منطقيًا أن يستقر عددٌ من علماء التكرور بمدينة القاهرة استقرارًا تامًا بمرور الزمن، وأن يبقوا بها حتى موتهم، وقد نال عددٌ منهم صيتًا كبيرًا. وكان من أبرزهم الشيخ "يوسف التكروري" الذي ذكرنا نتفًا من شأنه آنفا، وهو الذي حمل "حي التكرور" بالقاهرة اسمه حتى يومنا، وكان هذا الشيخ قد ذاعت شهرته، ونال مكانةً دينيةً واسعة بين عوام الناس على الأخص. وكان الشيخ "التكروري" ممن عُرف بين الناس بالتقوى، والصلاح، وهو ما يبدو جليًا في ثنايا الروايات القليلة التي تحدثت عنه. ويعتبر تقي الدين المقريزي، و"علي باشا مبارك" من أكثر المؤرخين الذين تحدثوا عن ترجمته[200].

وكان الشيخُ "يوسف التكرورى" يعيشُ بمدينة القاهرة في عصر "الدولة الفاطمية" (358–567هـ)، وتحديدًا خلال فترة حكم "العزيز بالله" (نزار) (365–386هـ)، وهو ابن المعز لدين الله الفاطمي (365– 386هـ)[201]. وقد عُرف هذا الشيخ "التكروري" بأنه من أصحاب الكرامات، ومما ورد في المصادر التاريخية عن كراماته، يقول المقريزى: "وكان يُعتقد فيه (أي الشيخ) الخيرُ، وجُربت بركةُ دعائه،

---

[199] **السعدي: المصدر السابق، ص76.**

[200] **علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33.**

[201] **يقول المقريزي عن الوقت الذي عاش فيه الشيخ التكروري: "ويقال إنه كان في خلافة العزيز بن المعز، وأن الشريف محمد بن أسعد الجواني جمع له جزء من مناقبه.." (المقريزي: الخطط، جـ4، ص133). وللمزيد، انظر على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33. والعزيز بالله هو أبوالمنصور نزار بن معد (المعز)، ولد سنة 344هـ، وولي حكم مصر سنة 365هـ، وكان أسمر اللون طويلاً، أصهب الشعر، عريض المنكبين، لايؤثر سفك الدماء، وكان حسن الخلق. وقد توفي العزيز بالله في بلبيس سنة 386هـ (وللمزيد، انظر القضاعي (ت: 454هـ): تاريخ القضاعي (عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف)، تحقيق: جميل عبدالله محمد، معهد البحوث العلمية واحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، 1995، ص570–571).**

وحُكيت عنه كراماتٌ كثيرة.."[202]. كما تروي المصادر التاريخية بعضًا من كرامات الشيخ التكرورى، وبعض تلك الكرامات ارتبط أيضًا بـ"التكاررة" (أو السودانيين) الذين كانوا يعيشون فى "حى التكرور" فى ذلك الوقت[203].

ومما حكي عن الشيخ التكروري، وكراماته بالقاهرة: أن إمرأةً خرجت من مدينة مصر (أي: القاهرة) تريدُ البحر (لعله يقصد: نهر النيل) فأخذ السودانُ (وهم أهل التكرور) ابنها، وساروا به فى مركب، وفتحوا القُلع فجرت السفينة، عندها تعلقت المرأة بالشيخ "يوسف التكروري"، وأخذت تستغيثُ به، فخرج لها الشيخُ من مكانه حتى وقف على شاطىء نهر النيل، ثم دعا الله سبحانه وتعالى، فسكنت الريحُ، ووقفت السفينةُ عن السير، فنادى الشيخ من فى المركب يطلب منهم الصبى، فدفعوه إليه، ثم ناول الشيخُ الطفل لأمه[204].

سكن جماعة أخرى من علماء التكرور في بعض المدن والأقاليم المصرية الأخرى، ولم تكن إقامتهم حكراً على مدينة القاهرة، وبولاق التكروري وحدهما، حيث تتحدث بعض المصادر التاريخية عن شيوخ آخرين من "التكاررة" الذين عاشوا بمصر، ولعل منهم الشيخ: "فاتح بن عثمان التكروري"، وهو الذي يلقب بـ"الأسمر"، وذلك إشارة إلى أنه كان من أصل تكروري، وأنه جاء من مدينة مراكش بالمغرب الأقصى، ثم استقر به الحال في "دمياط" بعد ذلك[205].

---

[202] علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33.

[203] المصدر السابق، ص33. كما تذكر الرواياتُ أيضاً أنه كان بالقاهرة لرجل يعمل بـ"الدباغة" أتاه عفص، فأخذه منه أصحاب السلطان. فأتى الدباغ إلى الشيخ التكرورى، وشكا اليه ما وقع فيه من ضر، وما فعله به أصحاب السلطان. ويقال إن الشيخ دعا ربه، فرد الله عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له فى ذلك. وقد حكى غير ذلك الكثير عن كرامات الشيخ (علي مبارك: المصدر السابق، ص133).

[204] المقريزي: الخطط، جـ4، ص133.

[205] على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ3، ص116.

3- جامعُ وضريحُ الشيخ التكروري بالقاهرة:

لما مات الشيخُ "يوسف التكروري" بمدينة القاهرة، أقام له الناسُ مسجدًا يُعرف باسمه فى ذات الموضع الذى كان قد دُفن فيه هذا الشيخ، وذلك عرفانًا منهم بمكانته الدينية، والروحية، ومن ثم أُطلق عليه اسم: "جامع التكرورى"[206]، وبفضل وجود هذا المسجد، وكذلك الضريح الذي دُفن به "الشيخ التكروري"، أطلق الناس على المنطقة الموجود بها كليهما اسم "بولاق التكروري". وعن هذا المسجد يقول المقريزي: "هذا الجامعُ في ناحية بولاق التكروري.."[207].

ومن المعلوم أنه لما مات "الشيخ التكروري" بُنى على قبره قُبة، وعمل بجانبه جامع، جدده، ووسعه الأمير "محسن الشهابى" مُقدم المماليك، وولى تقدمة المماليك عوضًا عن الطواشى عنبر السحرتى، أول صفر سنة 743هـ[208]. ثم إن نهر النيل مال على ناحية "بولاق" فيما بعد سنة 790هـ، وأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن، فخاف أهل "حي التكروري" أن يتهدم ضريح الشيخ التكروري، وكذلك الجامع الذي يحمل اسمه، نظرًا لقربهما من مجرى مياه النهر، فنقل الناس الضريح والجامع لداخل حي التكروري[209].

ويذكر على مبارك أن الجامع والضريح اللذان يحملان اسم الشيخ التكروري كانا باقيين حتى أيامه، والمعروف أنه توفي آواخر القرن 19م (في سنة 1893م)[210]. وكان قد قام بتجديد جامع الشيخ "التكرورى" السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وكانت توجد قبة فى حديقة الحريم بسراى "بولاق التكرور"

---

[206] المقريزي: الخطط، جـ4، ص133.

[207] المصدر السابق، ص133.

[208] علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ11، ص33.

[209] المقريزي: الخطط، جـ4، ص133.

[210] الخطط التوفيقية: جـ11، ص33.

للأمير ابن الأمير طوسون باشا. وعلى أية حال فإنه ممالاريب فيه أن التكارة الذين استقروا بالقاهرة بمرور الزمن اختلطوا، واندمجوا فى حياة المصريين، حتى يمكن القول بأنهم تمصروا تماما[211]. ويرى الباحثُ بدوره أن أعداداً من أهل التكرور آثروا البقاء، والاستقرار في "حي التكرور" بسبب وجود مسجد وضريح الشيخ يوسف التكروري.

4- مدرسة التكرور بالقاهرة:

يُرجح أن جماعات من شعب "التكرور" استقرت بمدينة القاهرة منذ وقتٍ بعيد، وقبل حوالي قرنين من زمان السلطان "منسا موسى" (712-738هـ) ذاته، حيث كانت تعيشُ جاليةٌ تكرورية كبيرة فى القاهرة منذ أيام "الدولة الفاطمية" (358-567هـ)، ومرورًا بحقبة "العصر الأيوبي" (567-648هـ). وفي الغالب كان أكثرهم من طلاب العلم التكارة، ولهذا أقام أهل التكرور، وكانوا أكثرهم فيما يقال من حكام بلاد الكانم (في تشاد)[212]، مدرسة لهم خاصة في منتصف القرن 7هـ/13م[213]. وكانت هذه "المدرسة التكرورية" تُعرف باسم: "مدرسة ابن رشيق"، وقد كانت الغاية العلمية من إقامتها، بجانب جمع طلاب بلاد "التكرور" معًا، وكذلك تدريس الفقه المالكى لهم، وهو المذهب الذى انتشر فى مصر، وكذلك في بلاد التكرور، وقد طُلب من واحد

---

[211] ابن إياس: بدائع الزهور، جـ3، ص321. وانظر على مبارك: جـ11، ص33.

[212] المقريزي: الخطط، جـ4، ص133.

[213] بلاد الكانم: هي مملكة أفريقية تأسست فيما يعرف باسم بلاد السودان الأوسط، وهي تقع في دولة تشاد حاليا، وقد قامت تحديدا على ضفاف بحيرة تشاد. ثم انتقل ملوك هذه البلاد إلى منطقة أخرى بجوار بحيرة تشاد، وأقاموا مملكة أخرى باسم: بلاد البرنو (وللمزيد عن بلاد الكانم، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص280-281)، عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص173 وما بعدها وكذلك Lavinia Dobler: Great Rulers of the African Past, Zenith Books, New York, 1965, PP. 95-100.

من كبار العلماء بمصر فى ذلك الوقت، واسمه "ابن رشيق" حتى يقوم بالتدريس في مدرسة التكرور للطلاب التكاررة الموجودين بمدينة القاهرة[214].

وعن تأسيس هذه المدرسة، يقول المقريزي: "هذه المدرسة للمالكية، وهي بخط "حمام الريش" من مدينة القاهرة، كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي "علم الدين ابن رشيق" مالًا بناها به، ودرس بها، فعُرفت به, وصار لها في "بلاد التكرور" سُمعةً عظيمةً، وكانوا يبعثون إليها في غالب السنين المال.." [215]. ويعتقد الباحثُ أن العالم "ابن رشيق" كان يدعو كبار علماء مصر ليقوموا بالتدريس فى "مدرسة التكرور"، فلم يكن التدريس فيها مقتصراً عليه وحده.

5- الجاليات السودانية ورُواق التَكرور بالقاهرة:

عَرفت مدينةُ القاهرة نظام "الحلقات الدراسية"، أو ما يعرف بـ"الأروقة" الدراسية فيما بعد، منذ حوالي القرن الأول الهجري، ومع الفتح العربي لأرض مصر سنة 21هـ/641م[216]. وقد تعددت الجالياتُ القادمة من الممالك الأفريقية جنوب الصحراء عامة إلى القاهرة، ولاسيما أولئك القادمين من "بلاد التكرور" بصفةٍ خاصة. وقد لعب "الأزهرُ الشريف" دورًا مهمًا فى جذب الكثيرين منهم، لما له من مكانة علمية ودينية كبرى بين المسلمين. وأخذت الأعدادُ الوافدة من الممالك الأفريقية تزداد لطلب العلم في الأزهر الشريف، ومن ثم صارت هناك حاجةٌ ملحةٌ لأن يكون لكل جالية أفريقية كانت قد استقرت بالقاهرة "رواقٌ" بالأزهر الشريف، وقد ارتبط هذا

---

[214] المقريزي: المصدر السابق، ص195.

[215] المصدر السابق، ص195.

[216] سعاد ماهر: مساجد مصر، جـ1، ص171.

الرواق بأهل تلك الجالية من العلماء، وطلبة العلم. وكلمة "الرواق" يُقصد بها لغةً أنها: "المسافة بين كل عمودين من أعمدة المسجد"، وجمعها: "الأروقة"[217].

وعلى أية حال، فإنه من المعلوم أن أول درس ألقي بـ"الأزهر الشريف يرجع إلى سنة 365هـ، ثم أقيمت دار لسكن الفقهاء والعلماء بجوار الجامع الأزهر، وقد وضعت لهم الرواتب لنفقاتهم[218]. أما عن البداية الأولى لـ"أروقة الأزهر" تقول الدكتورة "سعاد ماهر": "وكان الأزهرُ منذ بدأت الدراسة فيه مفتوح الباب لكل مسلم، يقصده الطلابُ من مشارق الأرض ومغاربها..يتلقون العلم، وتجري عليهم الأرزاق، وتقيم كلُ جماعة منهم في مكانٍ خاص بها، وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذي بدأ بالأزهر منذ العصر الفاطمي.."[219].

ويرى البعض أن البدايات الأولى لـ"نظام الأروقة" ترجع إلى أيام "العصر الفاطمي" (358-567هـ)، وتحديدًا إبان حُكم الخليفة الفاطمي "الحافظ لدين الله"[220]. بينما يؤكد آخرون أن نظام "الأروقة" تم العمل به بشكلٍ واضح أيام "دولة المماليك" (648-923هـ)، وقد استمر نظام الأروقة أيام الحكم التركي، وكذلك خلال

---

[217] هـ. أ. ر. جب وجـ. هـ. كالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ1، ترجمة: راشدة البراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م، ص667.

[218] سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ1، ص171.

[219] المرجع السابق، 175.

[220] يذكر المقريزي أن الأزهر منذ بنائه الأول كانت مقسما لأروقة، كما ذكر أيضا: "سأل الوزير يعقوب (بن كلس)..الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأطلق لهم كل ما يكفي كل واحد منهم..وأمر بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة (المقريزي: الخطط، جـ1، ص49)، ولعل تلك أو فكرة ترتبط بحلقات الفقهاء، أو ما يعرف بالأروقة فيما بعد. كما ذكر المقريزي أنه تم تجديده أيام الحافظ لدين الله الفاطمي، وأنشأ مقصورة باسم فاطمة الزهراء بجوار الباب الغربي الذي يقع في مقدم الجامع الأزهر بداخل رواقات المسجد (المقريزي: الخطط، جـ4، ص52، وانظر السيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص221). ولعله فهم من هذه الرواية وجود الأروقة أو الرواقات بالفعل، لكن دون أن يعطي المقريزي مزيدا من التفاصيل في هذا الشأن. (انظر عبدالعزيز الشناوي: الأزهر، جـ1، ص227).

حكم أسرة محمد علي (1805–1952م)، وإلى سنة 1954م، حيث صدر قرارٌ بإقامة "مدينة البعوث الإسلامية" ليُقيم فيها طلاب الأزهر الأفارقة، وغيرهم بدلاً من نظام الأروقة التقليدي، لاسيما مع كثرة وفود الطلاب الأجانب إلى مصر، سواء الأفارقة منهم، أو غيرهم من الجنسيات الأخرى[221]. وكانت "جالية التكرور" من أهم الجاليات الأفريقية التى كان لها رواق خاص بها بالأزهر الشريف، وكان يُعرف بـ"رواق التكرور"، أو "رواق التكارنة" (أو التكارة). وكان "شيخ الرواق" يجب أن يكون من "بلاد التكرور"، وكان يجد "رواق التكرور" في طرف المقصورة الجديدة فوق الإيوان، شمال الداخل من "باب الصعايدة". و"رواق التكرور" كان عبارة عن مبنى أرضي مقام على محل فسيح، وكان يقع أعلاه جزء من "رواق الشوام". وقد بلغت "الجراية" المقدمة إلى طلاب التكرور المقيمين داخل هذا الرواق، في بعض الأحيان" 33 رغيفًا، وكانت هذه الجراية تقدم لهم كل يومين، وكان طلبة التكرور يتقاضون راتبًا لمساعدتهم على المعيشة وطلب العلم غُرة كل شهر هجري[222].

ويُشير البعضُ إلى أن "رواق التكارة" كان مخصصًا لكل من: طلاب التكرور، وكذلك الطلاب القادمين من إقليم "واداي"، وكذلك طلاب دارفور، وسنار[223]. ولعل في ذلك خلطٌ واضح، لأن طلاب سنار كان لهم رواق خاص بهم، وكان يحمل اسم "رواق سنار"، وكذلك كان طلاب واداي، وهو من أقاليم تشاد، ومن ثم فمن الراجح أنهم كانوا ضمن "رواق الكانم والبرنو". وعلى أية حال فقد استفاد أهل

---

[221] عبدالعزيز الشناوي: الأزهر، جـ1، ص226. ويحدد البعض عدد أروقة الأزهر للطلاب الوافدين لمصر بحوالي 15 رواقا، وهم: رواق الشوام، رواق المغاربة، رواق الأتراك، رواق الحرمين، رواق اليمن، رواق البرنية (البرناوية، بلاد البرنو)، رواق الجبرتية (الحبشة والصومال واريتريا)، رواق البرابرة (موريتانيا وما جاورها)، رواق السليمانية (الأفغان)، رواق الجاوة (ماليزيا وأندونيسيا)، رواق التكارة أو الدكارنة (التكرور)، رواق دكارنة صليح (تشاد)، رواق الأكراد، رواق البغدادية (العراق والبحرين)، رواق الهنود، رواق السنارية (سنار)، رواق الصين (الشناوي: الأزهر، جـ1، ص234–240).

[222] عبدالعزيز الشناوي: الأزهر، جـ1، ص238.

[223] هـ. جب: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ1، ص68.

التكرور إبان قدومهم مع موكب الحج القادم بالإقامة بالقاهرة انتظاراً لخروج موكب الحج، ولهذا كانوا يذهبون لأروقة الأزهر للدراسة، وطلب على أيدي علمائه الكبار، وذوى المكانة، والشهرة الواسعة. ومن جانب آخر تذكر بعض المصادر أن عدد طلاب الأروقة بالأزهر الشريف في القرن التاسع الهجري كان قد بلغ حوالي 750 طالب من الأفارقة، والمغاربة، وكذلك طلاب العجم، والمصريين[224].

رحلة حج السلطانُ منسا موسى

(712-738هـ)

يُعد السلطان منسا موسى من أهم الحكام في تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، واسمه باللغة المحلية: "كانكان"، وقد ينطق "كنكن منسا موسى" Mansa " Kankan

[224] **سعاد ماهر: مساجد مصر، جـ1، ص175.**

Musa[225]، ويعتقد أن اسم كنكن هو اسم أم السلطان، ولقد قيل أيضًا كان اسمها: نانا كانجو[226]. كما ورد اسمه بحسب المصادر كانجو موسى[227]، وفي الغالب فإن لقب "كانجو" أو كانغو ليس إلا تصحيفاً لاسم "كانكان"، ثم تحول حرف الكاف إلى جيم، أو العكس، والاسم الأخير ينتسب فيه منسا موسى لأمه[228]. هذا الملك يُعرف أيضاً باسم آخر، وهو "موسى الأول" Musa I[229] ولعل ذلك إشارة لأنه في الغالب كان أول الحكام في تاريخ ممالك غرب أفريقيا الذي حملوا اسم موسى، ومن ثم فلم يسبقه أحد في تلك التسمية من قبل.

كما ورد باسم آخر وهو الأشرف موسى في بعض المصادر، وعن هذا السلطان، يقول (إسماعيل) ابن كثير (ت سنة: 774هـ): "ويُقال له الملك الأشرف موسى بن أبى بكر"[230]، وارتقى السلطان منسا موسى العرش فى بلاده في حوالي سنة 712هـ/1312م[231]. ويعتقد أن منسا موسى كان حفيداً لسلطان مالي الشهير سندياتا كيتا[232]، وظل موسى يحكم مملكة مالي حتى سنة 738هـ، وقيل بحسب آخرين انتهى حكمه في سنة 737هـ[233].ويشير البعض إلى أن منسا موسى يعد "المنسا" العاشر، أو السلطان العاشر في تاريخ مملكة مالي[234]. وإذا كان الملك سندياتا يُعد المؤسس الحقيقى لمملكة مالى، فإن فترة حكم منسا موسى تعد بمثابة

---

(225) Archeology World Wide; Magazine of German Archeological Institute, Africa, Berlin September, 2018, P. 25.

(226) طرخان: امبراطورية غانة، ص59.

(227) M. Guilhem, P. 35

(228) طرخان: امبراطورية غانة، ص59.

(229) Ibid, P. 35

(230) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ14، ص 116، ويذكره ابن خلدون بقوله: "منسا موسى بن أبي بكر (ابن خلدون: العبر، جـ6، ص267).

(231) س. عنتر: فقهاء المالكية، ص66.

(232) Oumar D. Toure: Empire of Mali during 12th to 14th Century, 2021, P.5.

(233) س. عنتر: فقهاء المالكية، ص66.

(234) Oumar D. Toure: Empire of Mali, 2021, P.5.

"العصر الذهبى" Golden Age لهذه البلاد، وذروة اتساعها، وعظمتها[235]. وتذكر المصادر أن نشأته كانت إسلامية واضحة، وكانت مالى تحولت إلى الإسلام منذ حوالي سنة 653هـ/1255م[236]، ومن ثم كان الإسلام هو دينه الذي كان يعتز به، خاصة وأن الإسلام هو دين أجداده من قبله زهاء ثلاثة قرون، ولاشك أن شعب مالى كان مقبلاً على الإسلام، وعلى استخدام اللغة العربية، وحفظ القرآن. كما اشتهر منسا موسى بالعدل في حكمه، ويبدو ذلك من خلال وصف ابن خلدون له، حيث يذكر: "وكان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تُؤثر عنه"[237].

شكل رقم 84

صورة للملك منسا موسى (ملك الذهب)

وكان الناس في مملكة مالي آنذاك يحثون أبناءهم على حفظ كتاب الله منذ طفولتهم المبكرة، حتى إن البعض منهم ربما كانوا يعاقبون أبناءهم إن لم يحفظوا القرآن بانتظام، بل وكان بعضهم يُقيد أقدام أبنائهم بالسلاسل الحديدية، أو كانوا يضعون

---

[235] The New American Ency, P. 723.

[236] M. Guilhem, P. 32.

[237] ابن خلدون: جـ6، ص267.

أثقالاً حديدية على أقدامهم حتى تجعلهم يسيرون بمشقة[238]. ويبدو من خلال بعض تلك الإشارات التاريخية الواضحة حول رغبة الشعب فى تطبيق مباديء الإسلام، وممارستها في حياتهم، إذ كان من الواضح لكل ذي بصيرة إقبالهم على تطبيق شعائر الدين بكل ما استطاعوا[239]. ومن ثم محاولتهم تأصيل ذلك الدين الحنيف فى أفئدة أبنائهم حتى ولو كان ذلك باستخدام بعض الشدة فى ذات الآن، فهم لا يرومون إلا صلاح الأبناء، والخير دومًا لهم.

ومن بين ما ورد في ذلك الشأن ما يذكره الرحالة ابن بطوطة (ت: 779هـ) الذي أفاض في وصف مظاهر الإسلام في بلاد مالي في أيامه: "دخلتُ على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون، فقُلت له: ألا تُسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظون القرآن. ومررت يوماً بشاب حسن الصُورة عليه ثياب فاخرة، وفى رجله قيدٌ ثقيل، فقلت لمن معى: ما فعل هذا ؟ أقتل؟ ففهم عن الشاب، وضحك، وقيل لى: إنما قُيد حتى يحفظ القرآن"[240]. ومن ثمة تقدم لنا رواية ابن بطوطة بكل وضوح تلك البيئة الإسلامية الطيبة التى نشأ، وعاش فيها منسا موسى منذ مراحل صباه، حيث زار ابن بطوطة البلاد في زمان المنسا أو السلطان سليمان، أخو موسى، ولعل تلك البيئة الدينية المحافظة التي نشأ وترعرع فيها منسا موسى في صباه كان لها بالغُ الأثر عليه وعلى تدينه بعدئذ في باقي مراحل حياته.

ويُوصف منسا موسى بأنه شاب يافع، وكانت تبدو عليه أمارات التدين والورع، وكان هذا الشاب بحسب المصادر تميل لون بشرته إلى السُمرة، كما ورد في بعض الروايات أنه كان رجلاً بهى الطلعة[241]، ويوصف بأنه حاكم فصيح فى كلامه وأقواله[242]. وعن تدينه، وورعه، وأثر ذلك الإيجابي على رعيته، يقول جوييم

---

[238] Ibid, P. 35 . وللمزيد، انظر ابن بطوطة عن عادات أهل مالي وحرصهم على تعليم أبنائهم القرآن الكريم، معاقبتهم ان هم أهملوا حفظ القرآن (ابن بطوطة: جـ2، ص 621).

[239] وهو ما يؤكد بطلان المزاعم التى قال بها بعض المستشرقين حول ما يسمى عندهم (انتشار الإسلام بحد السيف)، ولو أنهم يعرفون أمورا كهذه ، لما جرأوا على القول بتلك المزاعم.

[240] ابن بطوطة: جـ2، ص 621 .

[241] البداية والنهاية، جـ14، ص116.

[242] M. Guilhem, P. 35.

Guilhem : "كان تدينه يبدو بصدق، وهو ما حمل رجال بلاطه على أن يحذوا حذوه"[243]. ولاشك أن فترة حكم السلطان منسا موسى تشكل فترة استقرار سياسي واقتصادي واداري، وكذلك رفاهية فى تاريخ المملكة، وكان من أبرز مظاهر ذلك خلال حكمه أن صارت العديد من المدن مراكز ثقافية مهمة فى بلاد غرب أفريقيا لاسيما مدن: تمبكتو (تنبكت)، وجني، وجاو..الخ[244].

وبلغت المملكة ذُروة اتساعها في أيامه، فكانت تضم آراضي غانة، وبلاد التكرور (السنغال حالياً) غرباً، إلى دندى شرقاً، وحتى آراضي وتخوم بلاد الكانم الواقعة عند بحيرة تشاد، وكذلك كانت تمتد من مدينة ولاته فى الصحراء إلى مرتفعات "فوتا جالون" في أقصى الجنوب[245]. ويُقدر البعضُ امتداد ملكه آنذاك لقرابة 2500 كم طولاً، وحوالى 1200 كم عرضاً[246]، بينما يصف ابنُ كثير مملكة مالي في زمانه، ومدى اتساعها، قائلاً: "له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين"[247]. ولعل هذا يُشير لاتساع سلطان مملكة مالي آنذاك، ومدى نفوذ حاكمها، وامتداد بلاده، واتساع تخومها، وزادت الفتوحات العسكرية فى أيام منسا موسى، حيث استولى على العديد من المدن، وكان من من أبرزها: مدينة ولاته (ايولاتن) Walata ، وتمبكتو (تنبكت) Timbuctu[248].

كما استولى منسا موسى على مدينة جاو أو غاو Gao بالقرب من أواسط مجرى نهر النيجر، وربما لم ينج من طموحاته العسكرية فى بلاد السودان الغربى سوى مدينة جني Djenne، وكذلك آراضي الموسي Mossi المستقلة[249]، وكان شعب الموسي Mossi من الشعوب الوثنية التي كانت ترفض الإسلام. وشهدت مالى (أو بلاد التكرور) طفرةً إدارية غير مسبوقة خلال فترة السلطان منسا موسى، حيث

---

[243] M. Guilhem, P. 35.

[244] Crowther: Africa, P. 519.

[245] حسن ابراهيم حسن: انتشار الاسلام، ص 104.

[246]- Guilhem: Histoire de l,Ouest African, P.33

[247] البداية والنهاية، جـ14، ص116، وعن اتساع ملك منسا موسى، يقول حسن ابراهيم: "وقد بلغت امبراطورية مالي أوج قوتها وثرائها فى عهد منسا موسى" (حسن ابراهيم: انتشار الاسلام، ص104).

[248] حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، 104

[249] حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، 104

قام بالعديد من الإصلاحات الإدارية المهمة، والتي ساهمت في تطوير النظام الإدارى فى بلاده.

كان منسا موسى مُغرماً بالعمارة والبناء، وكانت تلك الخصوصية تبدو لديه أكثر من أى ملك آخر من ملوك مالى الذين حكموا قبله، وحتى من جاءوا بعده، بل ربما كان منسا موسى أكثر من أي ملك آخر من ملوك غرب أفريقيا في ولعه بالبناء، وربما لا يمكن أن يقارن به إلا السلطان أسكيا محمد (899-935هـ) حاكم صنغي في حالة الشغف والميل للبناء والعمران. ولهذا لم يكن من المستغرب أن يوصف منسا موسى بأنه "الملك البنَّاء"، وكذلك اشتُهر بأنه "راعي الفنون" بحسب بعض المؤرخين[250]. ومن المعروف أنه إبان فترات الاستقرار والرخاء فى حياة الأمم والشعوب دوماً ما تشهد الكثير من الانجازات فى جوانب شتى من الحياة لاسيما في العمارة والبناء، إذ من المؤكد أن المنشآت والعمارة تبقى دوماً شاهدة أمام الأجيال القادمة على ماشهدته بلادهم خلال فترات ازدهارها الاقتصادي والسياسي في ذات الآن.

خريطة توضح طريق منسا موسى للحج مرورًا بمصر التي بلغ أكثر من 4 آلاف ميل

[250] جـ. نياني: مالي، ص161.

(كما كانوا يسلكون طريق غات الذي تحدث عنه ابن بطوطة)، الخريطة نقلاً عن The Block Museum of Art: The Caravans of Gold, P. 16.

وكانت أكثر أنماط العمارة التي اهتم بها السلطان منسا موسى في أيام حكمه بناء المساجد، والزوايا، وهذا ما كان يتوافق بوضوح مع نشأته الدينية، وورعه، وتدينه المعروف عنه. وظهر ذلك بشكل واضح بعد أن قام منسا موسى برحلة الحج إلى بلاد الحجاز، وهي التي اشتهرت بـ"الرحلة الذهبية"، وصار مرافقًا لما يقال له ركب أو موكب "الحج التكروري"[251]، ولاريب أن ما شاهده سلطان مالي في بلاد المشرق والتى انبهر خلالها بما رآه فى تلك البلدان من روائع العمارة والفنون الإسلامية لاسيما فى مصر وفي بلاد الحرمين، وعن ذلك الأمر، وأثره، يشير العديد من الباحثين إلى أن منسا موسى كان قد أحضر الى مملكته بعض الطرز المعمارية التي شاهدها فى بلاد العرب Arabia خلال رحلة الحج التي قام بها[252].

كما شاد منسا موسى حاكم دولة مالي العديد من المساجد الجديدة فى عدد من المدن الهامة فى بلاده، مثل: مدن تمبكتو (تنبكت)، وجنى، وجاو (غاو)[253]. وربما لهذا أراد السلطان أن يبني فى بلاده بعض المساجد كتلك التى رآها فى بلاد المشرق التي كان قد زارها خلال رحلته للحج لتأكيد نزعته الإسلامية القوية، وميله لنشر الدين بين الشعوب والقبائل الأفارقة[254]. ومن أهم المساجد التى أقامها منسا موسى: مسجد "جنجبر– بير"، الذي أقامه في تمبكتو، كما شاد مسجداً بالقرب من جاو[255]، وهي التي صارت بعدئذ عاصمة صنغي الإسلامية. كما قام بتجديد عمارة

---

[251] وللمزيد عن رحلة حج هذا السلطان، انظر بشار أكرم جميل: رحلة حج السلطان موسى بن ابي بكر التكروري، دراسة في مضامينها، مجلة آداب الرافدين، عدد 79، 2019م، ص443.

[252] Crowther, P. 519.

[253] Crowther, P. 519.

[254] Ibid, P. 519.

[255] السعدي: تاريخ السودان، ص57. وللمزيد عن ذلك المسجد بالقرب من جاو، انظر بشار أكرم جميل: رحلة حج السلطان موسى، ص456.

مسجد سنكري (سنكوري)، وهو المسجد الذى نال شهرة كبيرة فى السودان الغربى، وصار جامعة علمية كبرى[256]. وكان يأتي لهذا المسجد كبار العلماء في هذه البلاد، وكان يقصده طلاب العلم من داخل مالى وخارجها من باقي بلاد السودان الغربى، ومن ثم صار مقصداً رئيسياً لهم في طلب العلم[257].

وهذا ما جعل البعض يقارن بين هذا المسجد ودوره من جانب، وبين الجامع الأزهر بمدينة القاهرة الذي شاده الفاطميون في سنة 359هـ/970م من جانب آخر، وذلك بالطبع مع الفارق بين مكانة كليهما فى العالم الإسلامى. ولكن ومن أمور المنطق التي يجب أن يُنظر بها إلى مثل تلك الأمور أننا يجب أن نحسب قيمة جامع منسا موسى وأهميته العلمية والثقافية فى حدود اطاره الإقليمى لا أكثر، أي في حدود بلاد السودان الغربى، وما جاورها من مناطق وأقاليم جنوب الصحراء فحسب، مثل بلاد الهوسا، ومماللك بحيرة تشاد..إلخ[258].

وتذكر المصادر أن منسا موسى كان حاكماً جواداً، كثير الكرم، بل يمكن القول بأن جوده كان يبدو بلاحدود ربما الى درجة لاتُصدق من الإسراف المفرط أو المبالغ فيه في بعض الأحيان. ومن أبرز جوانب جوده تلك التى تظهر فى تشجيعه للعلماء وطلبة العلم، وإغداقه عليهم بالعطايا والأموال بهدف تشجيعهم على الإقبال على طلب العلم، وحثهم على الجد فيه. فقد يذكر المؤرخون أنه أعطى أحد علماء غرناطة فى بلاده، (وهو في الغالب المهندس الساحلي)، أربعة آلاف مثقال من الذهب، وكان ذلك العطاء الكبير فى يوم واحد[259].

وكان من أمارات الجود والثراء لدى هذا السلطان أيضاً ما حمله معه من أحمال الذهب التى تفوق الوصف خلال رحلة للحج التى مر خلالها بمصر، فقد أعطى منسا موسى الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر، وكذلك أمراءه، وكبار رجال بلاطه هدايا هائلة، وهو ما سيكون له حديثٌ مُفصل

---

[256] الموسوعة الأفريقية: ص181.

[257] المرجع السابق، ص181.

[258] بشار أكرم: رحلة حج السلطان موسى، ص455-457.

[259] حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص105

بعدئذ.

رحلة منسا موسى للقاهرة:

لما اعتنق الناس في بلاد السودان الغربي الإسلام، وجدوا فى أداء فريضة الحج فرصة سانحة لمزيد من التآخى، والتعارف مع إخوانهم من مسلمي المشرق، وهو ما أشعرهم بالمساواة الحقيقية مع غيرهم، إذ لاتمييز بين مسلم وآخر، بسبب لونه أو جنسه[260]، إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهذا المبدأ ما لم يجده الأفارقة إلا فى الإسلام، وهو الدين الذى ينادى بالمساواة المطلقة بين أتباعه. بينما يذهب البعض إلى أن منسا موسى أراد من خلال رحلته للحج أن يظهر لشعوب وحكام المسلمين بالمشرق ثراء بلاده، ورخائها، ومدى القوة التي بلغتها في أيامه[261]، وهو رأي له وجاهته بالطبع.

ويُعتقد أن منسا موسى وجد من خلال هذه الرحلة الفرصة طيبة له حتى يعقد بعض التحالفات خارج تخوم مملكته مع ملوك حكام بعض هذه البلاد[262]. ولاريب أن الحج فريضة إسلامية مهمة جدًا لكل مسلم، وهو واحدٌ من أركان الدين، والحج هو اجتماعٌ عالمى فريد له خصوصيته بين كافة المسلمين القادمين من كل حدب وصوب من بلاد الأرض. ولقد أدرك ملوك مالي أهمية أداء مناسك تلك الشعيرة المقدسة، والذهاب لبلاد الحرمين، مما يساعد على ربط شعوبهم بباقى الشعوب الإسلامية.

لقد كانت أولى زيارات الحج التي قام بها ملوك مالى تلك ترجع لحوالي سنة 442هـ/1050م[263]، وهي في الغالب رحلة السلطان برمندانة. وتذكر المصادر أن منسا على ابن سندياتا كيتا قام بالحج في سنة 653هـ/1255م أيام الظاهر بيبرس

(260) The Block Museum of Art: The Caravans of Gold, Art, Culture & Exchange across Medieval Saharan Africa,A Teachers's Guide, First Edition,2022, P.16.

(261) The Block Museum of Art, P. 16.

(262) The Block Museum of Art: The Caravans of Gold, P. 16..

(263) Guilhem, P. 32.

البندقداري[264]. ويذكر تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ) أن من أوائل الحكام من قام بأداء فريضة الحج من ملوك دولة مالي كان اسمه الملك "ساكورة" Sakora، وقد قيل كان اسمه: ساكبورة، والاسم الأول في الغالب هو الأصح، وكان قيام بالحج في أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس [265]. ومن ثم صار قدوم ملوك مالى إلى مكة سُنةً طيبة سار عليها الملوك بعدئذ، وكانت من الأحداث المهمة التى يتحدث عنها مؤرخو السودان الغربي. لكن يبقى موكب منسا موسى من أهم مواكب الحج لأحد ملوك السودان الغربى. قال ابن خلدون: "وحج (أي منسا موسى) سنة أربع وعشرين وسبعمائة"[266].

اهتم المؤرخون بهذا الحدث المهم في تاريخ قارة أفريقيا الوسيط بصفة عامة، وأفاضوا في الحدث عن فخامته وثرائه اللافت الذي لانظير له، وما كان يحمله موكب السلطان منسا موسى الذهبي المهيب من الكنوز والهدايا الثمينة لاسيما من مثاقيل وأحمال الذهب، حتى صار هذا الموكب العظيم، وكأنه أحد مواكب الأساطير [267]. وتذكر المصادر أن منسا موسى كان قد خرج من بلاده في حوالي سنة 734هـ/1324م فى موكب فخيم، يضم أعداداً هائلة من الحجاج والمرافقين، ومن ثم تباينت حول ذلك المصادر[268]. وكان الموكب يضم بحسب بعض الروايات زهاء 60 ألف شخص، وقيل: كان عدد الموكب أقل من ذلك في حدود 20 ألف (بحسب ابن كثير)[269]، وقيل

---

[264] الموسوعة الأفريقية: ص179 .

[265] المقريزي: التبر المسبوك، ص140-141.

[266] ابن خلدون: جـ2، ص267.

[267] مما يلفت النظر فى الروايات، وجود بون شاسع ما بين مبالغ فى الموكب، ونعته بأنه لا مثيل له، بينما يذكره آخرون دون تفخيم، ووضعوه فى سياق الأحداث كغيره من أحداث زمانه. بل إن من المعاصرين للموكب، أو ممن عاشوا بعده بقليل، تجاهلوا الحديث عنه. ومما يثير الدهشة أن بعض المؤرخين كانوا بالقاهرة أيام الموكب كـ"أبى الفداء اسماعيل" صاحب المختصر وتجاهل الموكب، ولم يذكره فى حوليات 724هـ، أو سنة 725هـ. ومن الروايات التي تحدثت عنه، قال ابن اياس: "وفيها (أى سنة 725هـ) حضر لى الأبواب الشريفية ملك التكرور المسمى موسى، وصحبته تقادم جليلة للسلطان. فلما حضر أكرمه السلطان، وأخلع عليه. وسبب مجيئه الى مصر أنه قصد أن يحج، فحج ورجع، ثم توجه لبلاده". ويبدو من ذلك أن ابن اياس أورد خبر الموكب كأنه زيارة عادية لملك أجنبى، ولم يذكر شيئا عن فخامة الموكب وما به من الكنوز.

[268] وللمزيد حول هذا الموكب، وعدد الحجاج المرافقين له، انظر بشار أكرم جميل: رحلة حج السلطان موسى، ص454.

[269] البداية والنهاية، جـ14، ص116.

أقل من ذلك، أي حوالي 15 ألف من الحجاج[270]، وكان يسبقهم زهاء 500 من العبيد، بينما بحسب روايات أخرى، كانت أعداد العبيد والخدم المرافقين للموكب أكثر من 12 ألف[271].

تشير بعض الروايات الأخرى إلى أن هذا الموكب كان يضم 14 ألف جارية، وكانت مهمتهن خدمة السلطان خلال رحلته الطويلة عبر دروب الصحراء ومسالكها[272]. وقيل كان يضم هذا الموكب زهاء 12 ألف من الجواري، وكانت تلك الجواري يرتدين الثياب الجميلة المصنوعة من الديباج والحرير[273]. وقيل كان مع منسا موسى قرابة 500 من سيدات الشرف[274]. ولاريب أن بعض تلك الأرقام أو الاحصائيات التي ورد ذكرها في ثنايا بعض المصادر تحمل الكثير من الإسراف والمبالغة التي لاتخفى على اللبيب[275].

أما عن مثاقيل الذهب التي حملها هذا الموكب الأفريقي الفخيم، فقد قيل، بحسب روايات، فإن كل عبد من العبيد القادمين مع ذلك الموكب كان يحمل قضيباً من الذهب، وكان يزن كل واحد زهاء 500 مثقال، وكان يزن المثقال منها حوالي 3 كيلو جرامات من الذهب الخالص. وتذكر بعض الروايات أن موكب حج السلطان الأفريقي كان يضم أيضاً زهاء 40 خُفاً محملاً بالذهب، وكان بكل حمل منها زهاء 3 قناطير من الذهب[276].

وكذلك تذكر روايات أخرى أن عدد الإبل الذين كانوا مع الموكب 100 إبل،

---

[270] بشار أكرم: رحلة حج السلطان موسى، ص454.

[271] The Caravans of Gold, P. 16.

[272] محمد أمين: الموسوعة الأفريقية، ص284.

[273] المرجع السابق، ص454.

[274] Guilhem, P. 34.

[275] Ibid, P. 34.

[276] ويبدو أن الرقم المقبول لعدد الموكب بحسب المؤرخين لايزيد على عشرين ألف شخص، لاسيما لو تصورنا المسافة التي سيقطعها الموكب، والمدة التي يستغرقها حتى يصل لمكة والتي لاتقل عن عدة شهور، وما يحتاج اليه المرافقون للموكب من طعام وشراب ومؤن لمثل ذلك العدد. بينما يقول ابن خلدون: "جاء هذا الملك من بلده بثمانين حملاً من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير" (ابن خلدون: ج2، ص267-268).

وكان كل منه يحمل قرابة 300 مثقال من الذهب[277]، وهي أرقامٌ تؤكد فكرة المبالغة الواضحة التي وردت في ثنايا بعض المصادر. ولاشك أن عدد الإبل الوارد آنفا، (أي 100 من الإبل)، كان أقل بكثير من العدد الحقيقي، إذ إن قافلة بهذا الحجم، وبتلك الفخامة وكذلك المهابة كانت تضم أضعافاً كثيرة تفوق بمدى بعيد هذا الرقم الآنف ذكره. ويرى المؤلفُ أن الرواية التي أوردها كلٌ من ابن كثير (ت: سنة 774هـ) وابن خلدون (ت: سنة 808هـ) عن قدوم الموكب تبدو أكثر دقة، وهي تحمل الكثير من المصداقية لحد كبير أكثر من غيرها، لاسيما وأن كليهما إما كان معاصراً للحدث، أو عاش في حقبة قريبة منه.

وتعد رواية المقريزي (ت: سنة 845هـ) على أية حال من أهم الروايات التي تحدثت عن موكب منسا موسى، حيث يقول: "ويقال إنه قدم أربعة عشر ألف جارية برسم خدمته خاصة، فأقبل أصحابه على شراء الجواري من الترك والحبوش والمغنيات، والثياب، فانحط سعر الدينار الذهب ستة دراهم"[278].

وتحدث عن تلك الرحلة الدينية المؤرخ الحافظ إسماعيل ابن كثير، وقال: "وفيها (أي 724هـ) قدم ملك التكرور الى القاهرة بسبب الحج فى خامس عشرين من رجب. فنزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو عشرين ألفا، ومعهم ذهب كثير، بحيث نزل سعر الذهب درهمين فى كل مثقال. ويقال له الملك الأشرف موسى..وهو شاب جميل الصورة، له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين، ويذكر أنه كان تحت يده أربعة وعشرون ملكاً"[279]. وقطع منسا موسى خلال رحلة الحج من بلاده وحتى بلاد الحرمين مروراً بالآراضي المصرية أكثر من 4 آلاف ميل[280]، ويعتقد أنه سلك في طريقه للآراضي المصرية عبر طريق القوافل الغربى، وهو المعروف بـ"الطريق المصري" عبر مدينة جات أو غات، وهو طريق "غات– فزان"، ثم تعبر القوافل الواحات المصرية[281].

---

[277] The Caravans of Gold, P. 16.

[278] المقريزي: التبر المسبوك، ص143.

[279] ابن كثير: جـ14، ص116.

[280] The Caravans of Gold, P. 16.

[281] مجلة الدراسات الأفريقية: ص283. وللمزيد عن رحلة حج منسا موسى، انظر: حسين سيد عبدالله مراد: رحلة حج منسا

صورة أخرى توضح الطريق الذي سلكه منسا موسى

خلال رحلة الحج مروراً بالآراضي المصرية بحسب البعض

وقيل إن منسا موسى أراد القيام بمناسك الحج لأنه قتل أمه، وكان اسمها: "نانا كنك" بطريق الخطأ. ولهذا شعر بالندم الشديد رغم عدم قصده ارتكاب ذلك الأمر، وخاف من عاقبة ذلك عليه، وسخط الله عليه. ولذلك تصدق منسا موسى بأموال كثيرة على الفقراء والمساكين في بلاده، كما أنه نوى أن يصوم الدهر ليُكفر عن ذلك الذنب الذي كان قد اقترفه. ولما سأل منسا موسى بعض رجال الدين عن أفضل الوسائل، وما يمكنه أن يفعل طلبًا لمغفرة الله، فأفتوه بأن يقوم بالذهاب لبلاد الحرمين، وأن يزور قبر الرسول (ص)، ثم يدعو الله هناك حتى ينال الشفاعة من النبي محمد (ص)[282]. ويذكر القاضي محمود كعت (ت: 955هـ): "ولحجه سبب حكاه لي الطالب الحافظ لقصائص الأوائل..أن ملكي كنك موسى هو الذي قتل أمه (نانا كنك) خطأً، وأسف لذلك، وندم وخاف عقوبة ذلك، وتصدق بمال جسيم، وعزم على صوم الدهر، وسأل بعض علماء زمانه عما يفعل في الاستغفار لهذا الذنب العظيم، فقال له أرى أن تفزع إلى رسول الله..وتهرب اليه، وتدخل في حُرمته، وتستشفع به، وسيشفعه الله

موسى.. قراءة جديدة في ضوء تأويلات الشكري، مجلة الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، عدد 36، 2014م، ص1-24.

[282] كعت: تاريخ الفتاش، ص33، وانظر مجلة الدراسات الأفريقية: المرجع السابق، ص283.

فيك"[283].

ويذكر ابن بطوطة (ت: 779هـ/1377م) أنه خلال رحلته إلى بلاد السودان الغربي أيام منسا سليمان (741-761هـ) في حوالي سنة 753هـ/1352م)، نزل بخليج فى قرية كبيرة، وكان حاكمها من بلاد السودان الغربي، وكان ممن أدى مناسك الحج مع السلطان منسا موسى، وكان من المرافقين لموكبه[284].

شكل رقم 89

صورة قديمة لمدينة تمبكتو (تنبكت) أهم المدن في مملكة مالي

وقص هذا الرجل، وكان اسمه "فر بامغا" على ابن بطوطة حكاية كانت قد وقعت خلال رحلة الموكب إلى الآراضي مصر: "أخبرنى أن منسى (منسا) موسى لما وصل الى هذا الخليج، وكان معه قاض من البيضان يكنى بأبى العباس، ويعرف بالدكالى، فأحسن اليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته. فلما وصلوا الى ميمة، شكا إلى

---

[283] تاريخ الفتاش: ص32.

[284] ابن بطوطة: جـ2، ص622.

السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سُرقت من داره. فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً ولاسارق يكون بتلك البلاد"[285].

ويذكر ابن بطوطة أن خادمة ذلك القاضى أخبرت الأمير أن سيدها إنما وضع المال، وأخفاه، وأشارت عليه بالموضع، عندئذ ذهب هذا الأمير، ثم أخرج المال. ثم جاء به إلى سلطان مالي، وأخبره بذلك الأمر، فغضب السلطان منسا موسى على القاضي، وأمر بأن يتم نفيه[286]. ويقال إنه خلال طريق ذلك الموكب، أمر منسا موسى عبيده بأن يحفروا خندقاً كبيراً للحصول على الماء، ثم قام العبيد بملء القراب التى كانت مع الحجاج ليتمكن السلطان وحريمه من الاستحمام، مثلما كانوا يفعلون فى نهر النيجر فى بلادهم[287]. وفى يوم 25 من رجب سنة 724هـ/1324م وصل موكب الحج الخاص للقاهرة، كما أورد ذلك ابن كثير، وغيره[288]. بينما يذكر ابن إياس (ت: 930هـ/1523م) أن قدوم منسا موسى للقاهرة كان فى سنة 725هـ/1325م[289].

ولكن التاريخ الأول هو الأصح بالطبع، وربما يُشير التاريخ الثاني إلى سنة عودة الموكب من الحج للقاهرة، ثم التوقف بها مرة أخرى بعد أن قام بأداء فريضة الحج. ولما وصل منسا موسى، قابل الناصر محمد بن قلاوون في مقره بقلعة القاهرة، ثم قدم له سلطان مالي الهدايا النفيسة، ولما وصل ملك التكرور للقاهرة، صعد لقلعة الجبل ليسلم على الناصر محمد بن قلاوون، أُمر بتقبيل الأرض، فامتنع من ذلك. فأكرمه سلطان مصر، ولم يمكن من الجلوس حتى خرج بين يديه[290].

---

[285] المصدر السابق، ص622.

[286] ابن بطوطة: جـ2، ص622.

[287] Guilhem , Histoire de l'Ouest African, P.34 .

[288] ابن كثير: جـ14، ص 116 .

[289] ابن إياس: بدائع الزهور، جـ1، ص457.

[290] ابن كثير: جـ14، ص116.

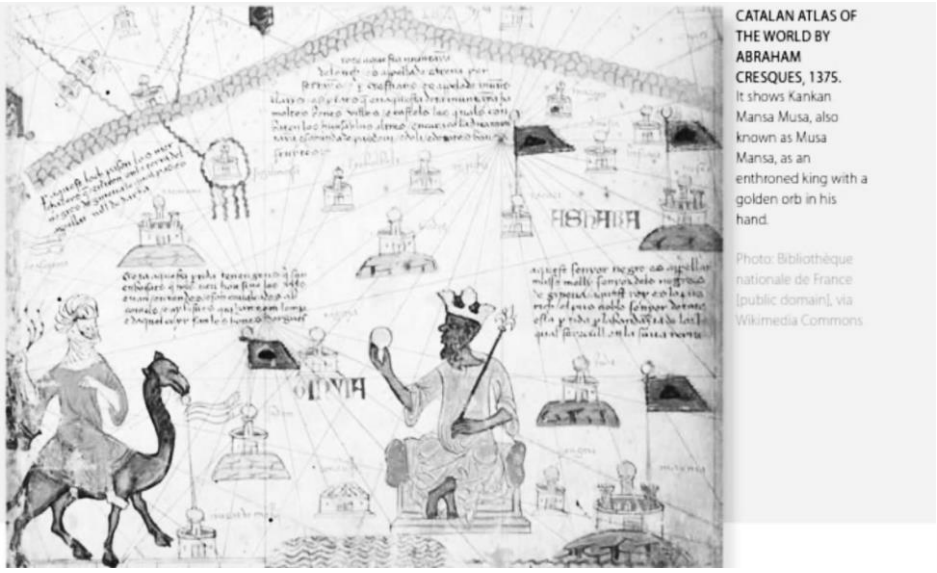

CATALAN ATLAS OF THE WORLD BY ABRAHAM CRESQUES, 1375. It shows Kankan Mansa Musa, also known as Musa Mansa, as an enthroned king with a golden orb in his hand.

Photo: Bibliothèque nationale de France [public domain], via Wikimedia Commons

شكل رقم 90

الخريطة القطالونية عن طريق الذهب في غرب أفريقيا التي قام بتصميمها الجغرافي اليهودي أبراهام كرسك Abraham Cresques بعد رحلة منسا موسى نقلا عن:

Magazine of the German Archaeological Institute,

Archaeology Worldwide – vol. 6 – Berlin, September 2018, P.25.

وتذكر المصادر ما فعله السلطان الناصر محمد بن مع منسا موسى: "وأحضر (السلطان) له (أي لمنسا موسى) حصان أشهب..وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله، وأرسل هو الى السلطان أيضا بهدايا كثيرة من جملتها 40 ألف دينار، وإلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار، وتحف كثيرة"[291]. وقيل: كانت هدية منسا موسى حمل من الذهب، قدره البعض، ومنهم الحافظ ابن حجر، بحوالى 5 آلاف مثقال،

[291] ابن كثير: جـ14، ص116.

بينما قدره آخرون بزهاء 50 ألف دينار[292]. ويذكر آخرون أن منسا موسى كان قد بعث إلى سلطان مصر (الناصر محمد) رسالة قبل قدومه مصر، خاطبه فيها بأجل آيات التقدير، كما بعث له بهدايا ثمينة[293].

ثم أمر الناصر محمد بن قلاوون بأن يسكن ملك مالي في أحد القصور بالقرافة، كما أعطاه ما كان يحتاج اليه، وبما يليق بمكانته كحاكم لبلاد السودان الغربى[294]. ولما قام منسا موسى بأداء فريضة الحج، عاد بعد ذلك إلى بلاده في حوالي سنة 725هـ/1325م. وبقى منسا موسى ملكًا على بلاده بعد ذلك قرابة 13 سنة، حتى وافته المنية في سنة 738هـ/1337م، وذلك بعد أن حكم تلك البلاد حوالي 26 سنة، ولقد شهدت مملكة مالي خلالها حقبة من أزهى الحقب عبر تاريخها، وأكثرها ازدهارًا، وعلى هذا فهي تعد بحق مرحلة بمثابة "العصر الذهبى" لمملكة مالي الإسلامية.

أثر قدوم موكب السلطان منسا موسى في القاهرة:

أحدث موكب منسا موسى (712-738هـ) خلال رحلة الحج فيما بين سنتي 724-725هـ/1324-1325م، دوياً هائلاً حيثما ذهب بموكبه، وحيثما توقف الحاكم الأفريقي أو ارتحل عبر دروب طريق الحج. ومعلوم أن الموكب كان قد رآه عدد من التجار الأوروبيين الذين كانوا موجودين بالمصادفة بمصر خلال قدوم ملك مالي، لاسيما تجار البنادقة الذين كانوا يقومون بالنشاط التجاري فى الأسواق المصرية خلال وصوله للقاهرة في سنة 724هـ، ولقد انبهر البنادقة بهذا الثراء الطائل الذى شاهدوه، وهذا الموكب الفخيم للسلطان الأفريقي

---

[292] محمد أمين محمد: مجلة الدراسات الأفريقية، ص 285.

[293] رجب عبد الحليم: الموسوعة الأفريقية، ص179. وللمزيد، ابن كثير: البداية والنهاية: جـ14، ص116، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م، ص457،

[294] ابن كثير: ج 14، ص 116.

المغمور بالنسبة لهم، ومن ثم أصاب العجبُ التجار الأوروبيين لهذا الكم الهائل من مثاقيل الذهب التي كان يحملها. ومن المعتقد أن هؤلاء التجار ما لبثوا أن أرسلوا التقارير العاجلة للقادة والحكام في بلادهم بأوروبا، يصفون فيها ذلك الموكب الذي لم يروا مثيلاً له[295].

وكان لمثل هذه الأخبار صداها العريض فى أرجاء القارة العجوز التي كانت تنوء آنذاك في عصورها المظلمة، كما كان الفقر يضرب أرجاءها، ومن المؤكد أن موكب ملك مالي تسبب بشكل واضح في إثارة مطامع الأُوروبيين فى الحصول على ذهب مالى خاصة، والسيطرة على مناجم الذهب في غرب أفريقيا بصفة عامة مهما كلفهم ذلك من عناء. ولم يمر وقتٌ طويل حتى تأسست ما تعرف بالجمعية الجغرافية فى "ميورقة" في بلاد الأندلس، وكانت الغاية الرئيسة من تلك الجمعية إعداد ورسم الخرائط للتعرف على الطريق المؤدية إلى "أرض الذهب" التى يحكمها منسا موسي ملك مالي صاحب موكب الحج المهيب[296]، ولعل من دواعى اهتمام الأوروبيين آنذاك بالذهب الأفريقى، أنهم كانوا قد استنفذوا ما كان لديهم من احتياطى الذهب بسبب الحروب الداخلية الطويلة التي خاضوها فيما بينهم[297].

ولقد لعب اليهود دوراً كبيراً فى رسم خريطة مالى، والتركيز على مناجم الذهب بها، وأهم مراكز التجارة الصحراوية التي كانت تمر بها القوافل القادمة من شمال الصحراء صوب أسواق الذهب في أقصى الجنوب، وكان من أهم تلك الخرائط: الخريطة القطالونية Catalan Atlas، وهي التي رسمها الجغرافي اليهودي أبراهام كرِسك Abraham Cresques[298]. وتم تصميم تلك الخريطة في سنة

---

[295] وللمزيد عن رؤية التجار البنادقة لموكب منسا موسى، انظر محمد أمين محمد: مجلة الدراسات الأفريقية، ص285، محمد عبدالعال أحمد: منسا موسى، ص54.

[296] محمد عبدالعال أحمد: المرجع السابق، ص54.

[297] على السيد علي: التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور، ص103.

[298] Magazine of the German Archaeological Institute: Archaeology Worldwide - vol. 6 - Berlin, September 2018, P.25.

1375م[299]، وهي تصور قلب الصحراء الكبرى، ويظهر فيها رجلٌ مُلثم يركب جملاً، ويبدو هذا الرجل وهو يسير بخطىً سريعة تجاه منسا موسى[300].

كما تصور الخريطة الملك الأفريقي ممسكاً بإحدى يديه بصولجان الحُكم، ويحمل فى يده الأُخرى قطعة كبيرة من الذهب، ثم يقدم الملك قطعة الذهب إلى ذلك الراكب الملُثم الذى يبدو مُهرولاً نحوه، ولاريب أن اللثام هناك يرمز للتجار العرب والبربر القادمين من الشمال الذين كانوا يتحكمون في تجارة الذهب، وتُطلق "الخريطة القطالونية" على هذا الملك: "موسى مالى...سيد زنوج غينية، ويكثر الذهبُ فى بلاده..حتى صار أغنى ملكٍ فى جميع البُلدان"[301]، وهي إشارات مهمة ذات دلالة. هكذا كان للخريطة القطالونية، وغيرها من الخرائط التي صممها الكارتوغرافيون أو الجُغرافيون الأوروبيون أثرٌ بعيد فى أن يسيل لُعاب الأوروبيين نحو مناجم الذهب في غرب أفريقيا. ثم بدأت مرحلة إعداد المخططات الماكرة والعدوانية التي تهدف للكشف عن طريق الذهب، وكذلك المناجم فى آراضي مالى، وكأن الذهب بدلاً من أن يصير نعمةً لأهل هذه البلاد، وما جاورها حيث يمنح السكان هناك الثراء والرخاء والرفاهية، إلا أنه صار نقمة ووبالاً، إذ جعل تلك البلاد ميداناً للصراعات بين القوى الاستعمارية الغاشمة لاسيما من جانب البرتغاليين للسيطرة على الذهب الأفريقي، وتجارته عبر مسالك الصحراء.

وكان البُرتغاليون من أكثر الشعوب الأوروبية ميلاً للمُغامرة، وكانوا في ذات الآن هم الأكثر دراية بالملاحة لاسيما خلال الحقبة المتأخرة من العصر الوسيط. وعلى هذا صارت رحلة السلطان منسا موسى للحج إلى بلاد الحجاز بمثابة مرحلة تاريخية فارقة في التاريخ الأفريقي خاصة، وفي التاريخ العالمي عامة، حيث كان موكبه الذهبي المهيب هو ما أثار انتباه الأوروبيين لكنوز القارة الأفريقية، ووضع المخططات الاستعمارية لاحتلال القارة، وكذلك السيطرة على ثرواتها لاسيما الذهب. وامتلك

---

[299] وللمزيد عن الخريطة القطالونية، وأهميتها في اكتشاف المستعمرين الأوروبيين للذهب في غرب أفريقيا، انظر

The Block Museum of Art: The Caravans of Gold, Art, Culture & Exchange across Medieval Saharan Africa, A Teachers's Guide, First Edition, 2022, P. 11.

[300] وللمزيد، انظر شكل الخريطة القطالونية، شكل رقم 90، وشكل رقم 91.

[301] طرخان : دولة مالى، ص88.

المستعمرون البرتغاليون أسطولاً بحرياً قوياً يمكنه أن يشق عُباب المحيطات، والبحار، وكان ولع البرتغاليين فى بلوغ مناجم الذهب في أفريقيا أكثر من غيرهم من أندادهم الأوروبيين آنذاك. ويذهب جيمس دافى James Davy إلى أن القرن 9هـ/15م يشكل حقبة اكتشاف البُرتغاليين لسواحل غرب أفريقيا لاسيما التي تطل على سواحل المحيط الأطلنطي، حيث قاد الأمير البرتغالي المعروف "هنرى الملاح" ما يعده بعضُ المستشرقين بمثابة نهضةٍ بحرية، وهي التى بلغت ذُروتها بأول رحلة قادها الملاح البرتغالي "فاسكو دا جاما" للوصول إلى سواحل بلاد الهند بهدف السيطرة على "تجارة التوابل"[302].

[302] ك. ماكفيدى: أطلس التاريخ الأفريقي، ص109.

رحلة حج السلطان أسكيا محمد

(901-902هـ)

كانت زيارة السلطان "أسكيا محمد" لمدينة القاهرة من الأحداث المهمة بفضل ما تمخض عنها من نتائج، ومن المعروف أن "أسكيا محمد" زار القاهرة خلال رحلته للحج، وهو في طريقه إلى بلاد الحرمين، وهي الرحلة التي قام بها بعد مرور سنتين من بداية حكمه[303]. ويُحدد البعضُ بداية تلك الرحلة في سنة 901هـ[304]، وعنها يقول المؤرخ كعت (ت: منتصف القرن 10هـ): "ثم جعل أسكي محمد يتجهز للحج، وزيارة بيت الله..وقام بجمع المال، والجهاز للسفر، ونادى من كل أرضه..يطلب الزاد والعون، ومشى إلى الحج في شهر صفر، بعد ما حصل له ثلاثمائة ألف ذهبًا"[305]. وكانت رحلة أسكيا محمد في موكب ملكي مهيب، وهو موكب يُشير بوضوحٍ لازدهار هذه البلاد في أيامه لاسيما بفضل "تجارة الذهب" التي كان يُسيطر عليها حكام صنغي.

---

303 Levinia Dobler: Great Rulers of the African Past, P. 60.

وعن رحلة السلطان أسكيا محمد، يقول الرحالة الحسن الوزان: "وعندما فرغ (أي أسكيا) من نشر السلام والهدوء في مملكته، شعر بالرغبة في أداء مناسك الحج إلى مكة، وأنفق في هذه الحجة كل خزينته، وبلغت ديونه خمسين ألف دينار.." (انظر، الوزان: وصف أفريقيا، ص534-535).

304 Levinia Dobler & Wiliam A. Brown: OP. Cit. P. 60.

305 كعت: الفتاش، ص65. وعن رحلة حج أسكيا، يقول هيرش إنها رحلة دامت نحو عامين، وكان موكبًا ضخمًا، يضم نحو 500 فارس، وألف جندي (مشاة) يرافقون ملك التكرور وحمل معه كميات هائلة من الذهب تقدر بحوالي 300 ألف قطعة، أنفق ثلثها في أعمال الخير، والثلث الثاني أنفقها في كنفقات السفر، ثم الثلث الأخير أنفقها في شراء الهدايا الثمينة. وللمزيد انظر:

Early Islamic Civilization & African Kingdoms: Edited by: E. D. Hirch, Core Knowledge History & Geography, P. 97. www.coreknowledge.org.

وتذكر بعضُ الروايات أنه رافق "أسكيا" آنذاك خلال تلك الرحلة المشرقية حوالي 800 جندي، وكان معه عددٌ كبير من العلماء، والفقهاء، وكبار رجال البلاط، وحمل "أسكيا" معه زهاء 300 ألف قطعة من الذهب لنفقات تلك الرحلة. وعلى أية حال، كان عليه عبور الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية والمؤدي إلى مناطق شمال أفريقيا، ومنها إلى أرض مصر، لاسيما الطرق المعروف بالطريق المصري عبر مدينة "غات"، ومنها إلى فزان في ليبيا، ثم الواحات المصرية، وهو الطريق الذي أشار إليه ابن بطوطة في رحلته، حيث اقل عنه: "ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر، وطريق توات.."[306]. وبحسب روايات أخرى، قطع هذا الموكب مسافةً طويلة من بلاده حتى بلاد الحجاز مرورًا بمصر تبلغ حوالي 3000 ميلاً تقريبًا[307]. وقيل أيضًا: كان هذا الموكب يضم 500 فارس، و1000 من جند المُشاة[308].

وقيل: ضم موكب أسكيا محمد مئات الإبل التي كانت تحمل المؤن والتي كان قد حملها ملك التكرور ورفقته خلال تلك الرحلة[309]. ويذهب البعضُ إلى أن تلك الأموال التي حملها "أسكيا محمد" كانت من بين الكنوز والثروات التي في حوزة السلطان القوي المعروف الذي حكم قبله، وهو "سُني علي"[310]. ورغم تباين الأرقام التي وردت في ثنايا الروايات التاريخية حول ما حمله "أسكيا محمد" خلال رحلته

---

[306] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، جـ2، طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص628.

[307] Levinia Dobler: Great Rulers of the African Past, P. 60.

[308] سيسيكو: المرجع السابق، ص206.

[309] Levinia Dobler: Op. Cit, P. 60.

اسم التكرور كان من الأسماء الشائعة على سلطنة صنغي، وكذلك على كل بلاد غرب أفريقيا (السودان الغربي) خلال عصر سلاطين المماليك، وكان يطلق على السلاطين آنذاك: ملك، أو سلطان التكرور (للمزيد عن بلاد التكرور، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص286-287)

[310] Levinia Dobler: P. 61.

للحج من الذهب، إلا أنه من المؤكد أن هذا الموكب أبهر كل من شاهده بثراء هذا الملك، وازدهار بلاده[311].

وربما يؤيد ذلك أن العديد من المصادر تتحدث عن ازدهار هذه البلاد (أي سلطنة صنغي) في أيامه، وأن الرعية زمان أسكيا محمد كانوا في "خصب عيش، وأمن سرب"[312]. وبحسب البعض كان موكب الحج الذي صحب أسكيا محمد أكثر ثراءً، وإبهارًا من موكب السلطان "منسا موسى" ملك مالي إبان الفترة (724-725هـ)[313]. وليست لدينا الكثير من الأخبار المصدرية حول موكب السلطان أسكيا، إذ لم يتوافر للباحثين ما توافر من روايات معاصرة، وكذلك لاحقة لرحلته على غرار رحلة "منسا موسى" الذي كان قد سبقه للحج بأكثر من قرن ونصف. ثم وصل "أسكيا" لمدينة القاهرة بعد رحلة شاقة عبر دروب الصحراء الكبرى، ومسالها، واستقر بالمدينة حتى خروج موكب الحج المصري الذاهب لبلاد الحجاز، وفي القاهرة كانت لأسكيا محمد مناقشات مع علماء مصر بهدف تصحيح بعض الأمور الدينية والشرعية التي قد تخالف الإسلام، والتي كان يقوم بها الناسُ في بلاده[314]. وكان أكثر تلك المناقشات مع الإمام السيوطي (ت: 911هـ)، وكان أكثر علماء زمانه شهرة، وصيتًا. وقد دعا أسكيا محمد السيوطي لزيارة بلاده لينشر بها العلم، وهو ما حدث بالفعل[315].

---

[311] الوفراني: نزهة الحادي، ص90.

[312] المصدر السابق، ص90.

[313] عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص144، سيسيكو: المرجع السابق، ص145. وللمزيد أيضا عن المقارنة بين رحلة حج كل من أسكيا محمد ومنسا موسى، انظر:

Levinia Dobler: Great Rulers of the African Past, P. 61.

[314] Ibid, P. 61.

[315] السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، 1997م، ص290.

واستمع أسكيا للسيوطى، وانبهر به، وبعلمه، "وأخذ عنه العقائد الصحيحة، وتعلم منه الحلال والحرام"[316]. كما لقي أسكيا بالقاهرة الخليفة العباسي، حيث كانت تلك المدينة مقر الخلافة آنذاك منذ سقوط بغداد، وقد حصل منه على لقب مهم، وهو أنه صار الخليفة الشرعي الذي يحكم في "بلاد التكرور"، وصار يحمل لقب: Khalife du Takrur[317]، وهو ما عزز من مكانة أسكيا محمد في بلاده. كما اعُترف بشرعية حكم أسكيا في غرب أفريقيا مرة أخرى من خلال كبار الأشراف في مكة المشرفة[318]، وكان شريف مكة في زمانه يُدعى "مولاي العباس"[319].

ومن جانب آخر تذكر الروايات أن أسكيا محمد أنفق نحو 100 ألف دينار من الذهب على الفقراء وذوي الحاجة في كل من مكة والمدينة[320]. كما اشترى البيوت والبساتين، وغيرها من الممتلكات، ثم أوقفها على فقراء المسلمين، وكذلك طلاب العلم[321]. وتصف المصادر أسكيا محمد بعد العودة من رحلة الحج، بأنه سلك طريق العدل، ومال للسيرة العربية، وعدل عن سيرة العجم، و"صلحت أحوالُ البلاد في أيامه"[322]. ويشير "جي. ويلسون" J. Wilson إلى أن "أسكيا محمد" كرس حياته لخدمة الإسلام[323]. بينما يقول الوفراني: "وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب،

---

316 الوفراني: نزهة الحادي، ص89.

317 Le Tombeau des Askia Gao – Mali: Patrimoine Mondial, Direction Nationale du Patrimoine Culturel, Carter Edition, Gao, 2005, P. 9.

318 Lavinia Dobler: Great Rulers of the African Past,, PP. 47.

319 Boubou Hama: Askia Mohammed a travers la Tradition, P.48.

320 Ibid, P.48.

321 Ibid, P.48.

322 الوفراني: نزهة الحادي، ص90.

323 J. Daniel Wilson: in Search of Askia Mohammed the Epic of Askia Mohammed & Songhay Foundtional Myth, Thesis of Master of Arts, Department of History, J. Madison University, May 2015, P. 62.

رقيق القلب، خافض الجناح، شديد التعظيم لأيمة الدين، مُحبًا للعلماء مكرمًا لهم غاية الإكرام، ويُفسح لهم في المجلس"[324]. وكان أسكيا ينتهج سياسة تقوم على نشر الإسلام في البلاد المُجاورة[325]. وقد كان أسكيا محمد مُحبًا للعلم، وأهله، ومن ثم كان يعتبر حاميًا لأهل العلم[326]، وجعل أسكيا قاضيًا على كل بلد، كما شاد المساجد، وبنى المراكز الإسلامية، ومعاهد العلم[327].

ولقد شهدت المرحلة الأخيرة من حياته شهدت الكثير من المُعاناة، والتقلبات الغير متوقعة، ونكران الجميل من جانب أبنائه[328]. ويعتقد الباحثُ أن أسكيا محمد عاش عمرًا طويلاً (قرابة 97 سنة)، وطعن في السن، والراجح أنه لم يعد قادرًا على الحكم كما كان في عنفوانه، لكن ذلك لايُبرر ما فعله أبناؤه، وأن يسيئوا معاملته، وأن يقوموا بعزله. يقول كعت: "عزلَ أسكي موسى أباه أسكي محمد، وتسلطن، ولم يبارك الله له في سلطنته، وذلك في يوم عيد الأضحى من العام الخامس والثلاثين..وعاش سبعًا وتسعين سنة.."[329]. ولما عُزل عن الحكم على يد ابنه موسى (935-946هـ)، دعا عليه أشد الدعاء، وأن يكشف الله عورته[330].

---

[324] الوفراني: نزهة الحادي، ص90.

[325] Encyclopedia Britanica: The Songhai Empire the Rise and Fall of Great West African Empire, Adaptated by: Newsela Stuff, P.1.

[326] J. D. Wilson: in Search of Askia Mohammed the Epic of Askia Mohammed & Songhay Foundtional Myth, P. 62.

[327] أمين بشير باي: الأسقيا محمد التوري من خلال كتابي تاريخ الفتاش وتاريخ السودان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجيلالي (الجزائر)، 2019م، ص59.

[328] محمود كعت: تاريخ الفتاش، ص83.

[329] تاريخ الفتاش، ص78.

[330] المصدر السابق، ص83.

وعن نهاية أسكيا، يقول الوفراني: "ولم يزل (أسكيا) على سيرته الموصوفة إلى أن اخترمته المنية، فقام بالأمر بعده ولده.."[331]. وتذكر المصادر أن أبناءه أعلنوا التمرد عليه، وأجبروه على التخلي عن العرش قسرًا لابنه "أسكيا موسى"، ثم نُفي أسكيا محمد إلى جزيرة نائية في سنة 934هـ[332]. ويقال إن أسكيا محمد كان قد استنجد بأخٍ له بعد تمرد أبنائه، لكن قُتل على أيديهم[333]. وقد بقي أسكيا محمد في منفاه مدة 9 سنوات[334]، ويقال بحسب بعض الروايات إنه فقد بصره في آواخر أيامه[335]، ثم أعيد أسكيا محمد من المنفى في أيام حكم ابنه السلطان أسكيا إسماعيل، ومن ثم بقي أسكيا محمد في مدينة "جاو" (مالي حاليًا) حتى مات بها، وكان موته بعد عودته من المنفى بحوالي سنة[336].

---

[331] الوفراني: نزهة الحادي، ص90. يذكر الوفراني أن أسكيا داود هو الذي ارتقى العرش بعد أبيه، وهذا غير صحيح، فأكثر المصادر تذكر أن أسكيا موسى هو الذي ارتقى العرش في صنغي بعد أبيه.

[332] أمين بشير باي: الأسقيا محمد التوري، ص59.

[333] المرجع السابق، ص61.

[334] Encyclopedia Britanica: The Songhai Empire, P. 4.

[335] أمين بشير باي: الأسقيا، ص61.

[336] Ibid, P.4.

حكم بعد "أسكيا محمد" (898–935هـ)، ابنه "أسكيا موسى" (935–946هـ)، ويوصف بأنه يُعتبر من أجل السلاطين، ومن أكثرهم هيبة، ووقارًا وامتد حكمه لحوالي إحدى عشرة سنة. ثم حكم السلطنة من بعده أخوه: وهو السلطان أسكيا إسحاق (946–956هـ). ثم حكم أخوه "أسكيا داؤود" (956–991هـ)، وامتد حكمه مدة طويلة، تقارب 35 سنة، وكان حكمه يتميز بطابع عسكري، حيث سار على درب أسلافه من ملوك صنغي في التوسعات على حساب الممالك والأقاليم المجاورة لبلاده (للمزيد عن خلفاء أسكيا محمد، انظر عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص144–146).

التأثيرات المصرية في عمارة بلاد السودان الغربي

تظهر التأثيرات الفنية المصرية لاسيما في في فنون العمارة في العديد من النماذج المعمارية التي تحدثت عنها المصادر التاريخية، وكذلك أشارت إليها الدراسات الأركيويولجية الحديثة التي تناولت العمارة في بلاد السودان الغربي. وسوف نأخذ

نموذجين من تلك التأثيرات المعمارية المصرية في هذه البلاد لاسيما في دولتي مالي وصنغي الإسلاميتين، وهما قبة السلطان منسا موسى التي بناها المهندسون على غرار القباب التي رآها السلطان منسا موسى بالقاهرة، وكذلك انبهر بها وبعمارتها آنذاك خلال رحلة الحج الشهيرة التي قام بها، وكذلك قبر السلطان أسكيا محمد في جاو الذي سيد على طراز الأهرامات المصرية.

قبة السلطان منسا موسى:

تعد تلك القبة المعمارية من أهم مظاهر التأثيرات المصرية في عمارة بلاد السودان الغربي خلال العصر الإسلامي، حيث تتحدث عددٌ من المصادر التاريخية وكذلك الجغرافية عن بعض المنشآت والمباني الملكية الخاصة بملوك دولة مالي الإسلامية، وما كانت تتميز به من سمات معمارية، ولاسيما تلك التي كان يُطلق عليها "القُبة السلطانية"[337]، أو "الدكة السلطانية"، وكذلك عرفت باسم "مقعد السلطان"، كما تحدثت المصادر عن مسميات معمارية خاصة بعمارات كانت تنتسب لملوك هذه البلاد، وكان من أبرزها "البنبي السلطاني"، وتلك التسمية كان يستخدمها السكان المحليون، وكذلك تحدثت المصادر عن مبنى ملكي خاص بالسلطان يطلق عليه "المشور السلطاني"، وهو بناءٌ خاصٌ بملوك مالي من ناحية أخرى[338].

ومن المعروف أن حكام مالي لاسيما خلال حقبة القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي كانوا يجلسون في قصورهم في مكان معلوم يشبه شكل المصطبة الكبيرة، ولقد عرف أيام السلطان منسا موسى بـ"مقعد السلطان" بحسب ابن خلدون[339]. وكان السكان المحليون يُطلقون عليه تسمية "بنبي" أو "البنبي" (وتُكتب بالباء الموحدة، والنون، والباء الموحدة) على دكة كبيرة مصنوعة من الأخشاب،

---

[337] ابن خلدون: ج6، ص268.

[338] ابن بطوطة: ج2، ص614.

[339] ابن خلدون: ج6، ص268.

خاصة من خشب الأبنوس، ولقد كانت تبدو في شكل التخت[340]. ومن المعتقد أن تلك المصطبة (أو بناء البنبي) كانت في الغالب ذاتها البناء الذي كان يطلق عليه "قُبة السلطان"[341]. ولقد سمع ابن خلدون من أهل التكرور ممن كانوا قد شاهد هذه القبة الخاصة بالسلطان منسا موسى على وجه التحديد، ثم إنهم وصفوا له البناء الخاص بهذه القبة بدقة واضحة، وذكروا له أنها كانت شيدت بعد عودة منسا موسى من رحلة الحج المشهورة، حيث يقول البعض في وصف عمارة القبة: "ورجعنا معه إلى حضرة مُلكه، فأراد أن يتخذ بيتاً بمقعد سلطانه محكم البناء، مجلاً لغرابته بأرضهم"[342]. وربما لأن الناس هناك لم يكونوا معتادين على مثل تلك المنشآت ذات البناء المحكم والرائع في ذلك الوقت.

ثم يذكر ابن خلدون أن الذي بنى القُبة ذات الشكل المربع، أو المقعد الخاص بمنسا موسى هو المهندس أبواسحاق الساحلي، ومن الواضح أن المهندس الساحلي أتقن في بناء هذا المقعد أحسن الاتقان[343]. ثم يذكر ابن خلدون: "فأطرفه أبواسحق الطونجق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته، وكان صناع اليدين، وأضفى عليها الكلس، ووالى عليها بالأصباغ المشُبعة، فجاءت من أتقن المباني"[344]. وكان من الطبيعي أن ينبهر منسا موسى بهذا البناء الجديد في بلاده، وأخذ من جمال العمارة في هذه القبة التي شادها له أبواسحاق، لاسيما وأنه لم يكن معتاداً على مثل هذة الحالة اللافتة من الإبداع في العمارة والبناء في بلاده من قبل رغم ثراءها وغناها، ولهذا قدم له السلطان مكافأة ثمينة من الذهب تشجيعاً لهذا المهندس على إتقانه في بناء القبة، وهي التي أسعدت حاكم هذه البلاد، ولهذا تذكر المصادر: "ووقعت من السلطان موقع الاستغراب، لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله بإثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليه"[345].

---

[340] العمري: جـ4، ص61.

[341] هوارد: أشهر الرحلات في غرب أفريقيا، ص39.

[342] ابن خلدون: جـ6، ص268.

[343] المصدر السابق، ص268.

[344] المصدر السابق، ص268.

[345] ابن خلدون: جـ6، ص268.

وعلى هذا فمن المؤكد أن أثر رحلة حج منسا موسى في تطور العمارة في عموم بلاد السودان الغربي، ومحاولة الكثير من السلاطين الأفارقة بناء عمائر ومبان جميلة على غرار ما كانوا يشاهدونه بأم أعينهم في رحلاتهم في بلاد المشرق الإسلامي. أما عن وصف القبة ، يقول العمري: "وسلطان هذه المملكة يجلس في قصره على مصطبة كبيرة تُسمى عندهم بنبي..على دكة كبيرة من أبنوس كالتخت، يكون قدر المجلس العظيم المتسع، عليها أنياب الفيلة في جميع جوانبها، الناب إلى الناب"[346]. ولما كان يجلس السلطان في البنبي السلطاني، كان يقف في الخلف منه عدد كبير من المماليك الترك، وغيرهم ممن كانوا يبتاعون له من الأسواق بمصر[347]. وكان يحيط بالسلطان الأمراء وكبار رجالة البلاط، والعلماء والفقهاء، والأعيان، والجنود[348].

لاشك أن رغبة السلطان منسا موسى في بناء قُبة له بهذا الشكل المتقن والبديع الذي قام به المهندس الأندلسي، كان ذلك بالطبع بسبب حالة الانبهار الشديد التي شعر بها الحاكم الأفريقي لما زار أرض مصر، وشاهد روعة عمارتها في ذلك، أي أيام دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، لاسيما ما رآه في أحياء مدينة القاهرة التي كانت بمثابة دُرة مدن الإسلام في أيامه، وكان سلاطين وأمراء المماليك اشتهروا ببناء هذا النوع من القباب السلطانية، أو مقعد ملكي خاص بهم، وهو المعروف أيضًا بـ"المقعد السلطاني" على غرار قبة السلطان الغوري، أو مقعد الغوري في حي الحسين، وكذلك مقعد ماماي السيفي..الخ.

ومن الراجح أن منسا موسى كان قد عزم على بناء مقعد لنفسه على غرار الطراز المملوكي المصري، أو بمعنا أدق تقليداً لطراز البناء القاهري، وفي ذات الوقت مع مراعات أن يتناسب البناء مع طبيعة البيئة الأفريقية من جانب، والإمكانيات المتاحة في مملكته من ناحية أخرى، وكان ذلك بعد العودة من الحج، وهي ذات الفكرة التي يؤكدها جـ نياني عن حالة الانبهار التي أصابت حاكم مالي من روعة العمارة بالقاهرة آنذاك، حيث يذكر: "عاد منسا موسى إلى بلاده مبهوراً

---

[346] العمري: جـ4، ص64-65.

[347] المصدر السابق، ص65.

[348] العمري: جـ4، ص65.

دون شك بجمال قصور القاهرة، وعظمتها، وقد اصطحب معه المهندس المعماري أبا إسحق الطونجق"[349]. وعلى هذا فالمؤكد أن المقعد السلطاني، أو القبة السلطانية، كانت من أبرز مظاهر التأثيرات المعمارية المصرية في غرب أفريقيا.

ويفهم من المصادر أن مقعد السلطان كان موجوداً داخل بناء القصر الخاص بسلطان مالي، ولاشك أن بناء مثل هذه الأبنية لن يمثل إشكالية لملوك مالي (لاسيما منسا موسى) نظرا لثراء هذه البلاد، وغناها بالذهب، وهو ما يجعل بناء مثل هذه العمارات أو الأبنية أمراً ليس صعباً عليهم، نظراً لتوافر الإمكانيات المادية والاقتصادية في بلاد السودان الغربي، بل المؤكد أن الحاجة كانت أكبر لاستقدام مهندس معماري أجنبي مثل الساحلي يمكنه تشييد أي بناء يريده السلطان، وهم يعلمون أن البناء في بلادهم يبدو متواضعاً مقارنة بما شاهده من روائع العمارة بالقاهرة. ويرى المؤلف أن المقعد آنف الذكر ربما يكون هو ذاته الذي كان قد رآه الرحالة ابن بطوطة في منتصف القرن 8هـ/14م، وتحديدا في حوالي سنة 753هـ، لما زار ابن بطوطة مملكة مالي أيام السلطان منسا سليمان، وهو أخو منسا موسى[350].

ويشير بعض المؤرخين في العصور اللاحقة أن ملوك الماندنغو ربما كان لدى الواحد منهم أكثر من مقر للحكم، وبحسب بعض الروايات كان لبعضهم مقران، أو ربما كانت لهم ثلاث مقرات سلطانية ليحكموا تلك البلاد منها[351]. وكانت تلك المقرات الملكية، التي يسكن فيها الملك أو الحاكم، وكذلك المنطقة المجاورة لها تكثر بها أعداد الناس[352]، أي أنها كانت مناطق ذات كثافات سكانية ملحوظة مقارنة بغيرها، وهو أمرٌ يبدو منطقياً لحد بعيد، وبما يحدث في كل ممالك الأرض، حيث تزداد أعداد السكان بالمدن التي تُبنى بها قصور ومقرات الملوك، نظرًا لأهميتها

---

[349] جـ. نياني: مالي، ص161.

[350] ابن بطوطة: جـ2، ص614.

[351] هوارد: أشهر الرحلات، ص39. وعن تلك المقرات السلطانية الخاصة بملوك الماندنغو يقول أحد الرحالة (في سنة 1620م): "ويقولون إن المنطقة يعج فيها السكان خاصة في المدينة التي يحل فيها الملك، وللملك (اي ملك الماندنغو) مقران أو ثلاثة لكني لم أشاهد إلا مقره في مدينة كاسان" (هوارد: أشهر الرحلات في غرب أفريقيا، ص39).

[352] ابن بطوطة: جـ2، ص614.

بسبب وجودها بالقرب من مقرات الحكام وصانعي القرار في البلاد. وفيما يخص وصف تلك القبة، وبنائها، يقول ابن بطوطة: "وله (أي ملك مالي في زمانه) قُبةٌ مُرتفعة، بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات، ولها من جهة المشور طبقات ثلاث من الخشب"[353].

وكانت القبة، بحسب ابن بطوطة، مغطاةً بصفائح من الفضة، وكان يُبنى تحتها ثلاث طبقات أخرى مغطاة بدورها بصفائح من الذهب، أو ربما تكون مُغطاةً من الفضة المذُهبة، وكانت توضع على القبة ستور (أي الستائر)، فإذا كان اليوم الذي يجلس فيه السلطان، كان الخدم السلطاني يقومون برفع تلك الأستار، وعلى هذا كان يعرف الرعيةُ وعامة الشعب من أهل مالي أن السلطان جالس في تلك القبة في هذا الوقت[354]. وفي وصف السلطان لما كان يجلس في البنبي السلطاني، يذكر أحد المصادر: "وعنده سلاحه ذهب كله..وعليه سراويل كبير مفصل من نحو عشرين نصفية لايلبسه أحد، ويقف خلفه ثلاثين مملوكاً من الترك..بيد واحد منهم جتر حرير عليه قبة، وطائر من ذهب..وأمراؤه جلوس حوله من تحته سماطين يمينًا ويسارًا، ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغني له، وهو سيَّافه، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وحولهم أناس بأيديهم طبول يدقون بها، وبين يديه أناس يرقصون، وهو (أي السلطان) يتفرج عليهم، ويضحك منهم"[355]. وعن ذلك المشهد، وجلوس السلطان في البنبي تتحدث العديد من المصادر في وصف ذلك الأمر.

وفي ذات الشأن ربما قد يخلط البعضُ فيما بين القبة أو الدكة السلطانية من ناحية، والمبنى الخاص بالمشور السلطاني من ناحية أخرى، ولكن يُفهم بحسب ابن بطوطة أن "القبة السلطانية" كانت بناءً مستقلاً على الراجح غير بناء "المشور السلطاني"، حيث يتحدث عن كل من القبة السلطانية ومشور السلطان بشكل مختلف[356]. وكانت الدكة السلطانية على قدر اتساع مجلس سلطان مالي، وعليها

---

[353] ابن بطوطة: جـ2، ص614.

[354] ابن بطوطة: جـ2، ص614.

[355] العمري: جـ4، ص64-65.

[356] ابن بطوطة: جـ2، ص614.

أنياب الفيلة منتشرة في جميع الأركان[357]. أما عن الحديث عن كل من المشور السلطاني والبَنبي، يذكر ابن بطوطة: "ويجلس (أي السلطان) أيضًا في بعض الأيام بالمشور، وهنالك مصطبةٌ تحت شجرة لها ثلاث درجات، يسمونها البنبي (بفتح الباء المعقود الأولى، وكسر الثانية، وسكون النون بينهما)، وتفرش بالحرير، ويجعل المخادع عليها، ويرفع الشطر، وهو شبه قبة من الحرير، وعليه طائرٌ من ذهب على قدر البازي"[358]. و

وكان للخدم والجند ممن يحيطون بالسلطان أسلحة تميزهم، كما كان السلطان ذاته له أسلحة يظهر بها على عامة الشعب عندما يظهر في القبة ، أو غيرها، ويصف العُمري (ت: 749هـ) في مسالك الأبصار سلاح سلطان مالي والذي كان معاصراً لأيامه– منسا سليمان– حيث يذكر أن سلاحه كان مصنوعاً من الذهب الخالص ومن أبرزها السيوف، والمزراق، والتركاش، والقوس، والناشب[359].

بينما يصف ابن بطوطة مجلس السلطان في القبة الملكية في العاصمة نياني كالتالي: "فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور، فُعلم أن يجلس، فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير، قد ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل، ضُربت الأطبال والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار، والدرق وهي التروس المصنوعة من الجلد، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة"[360].

---

[357] العمري: جـ4، ص65.

[358] ابن بطوطة: جـ2، ص614–615.

[359] العمري: جـ4، ص61.

[360] ابن بطوطة: جـ2، ص615.

يمكن القول بأنه ظهرت العديد من التأثيرات المعمارية المصرية في بلاد السودان الغربي لاسيما أيام دولتي مالي وصنغي. أعد السلطان أسكيا محمد قبل موته سنة 935هـ[361] قبرًا لنفسه ليدفن به، ومن اللافت أن هذا القبر كان مشيدًا على طراز معماري فريد في غرب أفريقيا جنوب الصحراء[362]. وعلى هذا فليس من المستغرب أن يُعرف ذلك القبر بحسب بعض الدارسين باسم: "القبر الهرمي" La Tombe Pyramidale، بينما يطلق عليه آخرون: "البرج الهرمي"، أو "البرج ذي الطراز الهرمي"[363].

كما يُطلق عليه: "البناء الهرمي"[364] Structure Pyramidale، ولعل كل تلك التسميات تؤكد التأثير المعماري المصري على هذا القبر. ويمكن القول بأن قبر السلطان أسكيا محمد يعتبر بناءً رائعًا وفريدًا بالمقاييس المعمارية في هذه البلاد، ويشهدُ على ثراء "صنغي" أيام "أسكيا محمد"، والتي ازدهرت خلال القرنين 9-10هـ من خلال سيطرة ملوكها على التجارة الصحراوية Trans – Saharan Trade[365].

ويُشكل قبر أسكيا بناءً مميزًا داخل "مجموعة معمارية"، وتضم تلك المجموعة العديد من المباني، والتي تُظهر في حد ذاتها نمطًا، وطرازًا غير مسبوق من طُرز

---

[361] عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص144.

[362] جاو: من أقدم مدن جنوب الصحراء، جاء تأسيسها على أيدي صيادين السوروكو (ربما السوننكي) Sorko القادمين من Koukia نهاية القرن7م. ومنذ القرن 5هـ/11م ذكرت جاو في روايات المؤرخين العرب الذين أطلقوا عليها Kaw Kaw وتقديمها عاصمة لمملكة صنغي Songhoy التي تأسست من قبل شعب السوركو (كوكيا) عند نهر النيجر (Le Tombeau des Askia Gao Mali: P. 9).

[363] Le Tombeau des Askia Gao – Mali: P. 9.

[364] Tomb of Askia: P. 1.

[365] Tomb of Askia: P. 1.

العمارة الأفريقية الوسيطة، إضافة لبعض التأثيرات الوافدة من خارج هذه البلاد. ولاريب أنه بعد عودة أسكيا محمد من رحلة الحج، صار ملك التكرور مُتشبعًا بالتقاليد العربية الإسلامية، ومن ثم جعل أسكيا الإسلام دينًا رسميًا في بلاده والتي كانت تُسيطر على أكثر الآراضي في غرب أفريقيا وقتئذ[366]. ورغم ذلك إلا أنه اتخذ لنفسه قبرًا ذي طراز هرمي على غرار أهرامات المصريين، وهو أمرٌ لايزال يُشكل لغُزًا أمام الباحثين. ومن ثمة يُمثل قبر أسكيا محمد طرازًا معماريًا يضم مزيجًا من تقاليد العمارة المصرية القديمة، وهو "الشكل الهرمي"، وكذلك تقاليد العمارة الأفريقية التقليدية. وعن هذا القبر، وأسباب بنائه على هذا الطراز، يقول أحد الباحثين: "إنه خلال رحلة أسكيا محمد للحج في مكة..شاهد الأهرامات بالقاهرة، وانبهر بها، ومن ثم قرر أن يشيد قبرًا على غرارها ليدفن به"[367].

شكل رقم 2: يصور هرم ميدوم وطرازه وبناؤه أقرب الأهرامات المصرية لقبر أسكيا محمد.

366 Ibid: P. 1.

367 Le Tombeau des Askia Gao – Mali: P. 9

ومن هنا يبدو لنا التأثير المعماري المصري واضحًا في بناء هذا القبر، ولاشك أن "الطراز الهرمي" الذي شاده ملوك مصر القدامى يحمل في طياته العديد من الرموز، والدلالات الثيولوجية[368] من خلال إيمانهم بعقيدة الخلود والأبدية، ورغبتهم في وضع أجساد ملوكهم في بناء ضخم مثل الهرم لحمايته[369]. ولعل أقدم بناء هرمي معروف لنا ينسب للملك "زوسر" Zoser (حوالي القرن 27 ق.م)، مؤسس "الأسرة الثالثة" الفرعونية[370]، وأشرف على بناء هذا الهرم الوزير والمهندس "إيمحتب" Imhotep، وهو المعروف بـ"الهرم المدرج" Step-Pyramid في سقارة حوالي 20 كم جنوب القاهرة، وهو بناءٌ مُشيد من 6 مصاطب حجرية[371] (انظر شكل 1). ثم صار القبر

---

[368] أحمد فخري: مصر الفرعونية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1995م، ص45.

[369] انظر إدواردز: أهرام مصر، ترجمة: مصطفى أحمد عثمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص42-43. انظر: Toby Wilkinson: the Thomas & Hudson dictionary of ancient Egypt, Thomas & Hudson world of art, London, 2005, P. 195.

[370] من المعروف أن تاريخ مصر القديم، أو التاريخ الفرعوني يضم 30 أسرة فرعونية تقسم إلى ثلاثة مراحل: عصر الدولة القديمة (وهي الحقبة المعروف باسم عصر بناة الأهرامات)، ثم عصر الدولة الوسطى، ثم عصر الدولة الحديثة (عصر الامبراطورية).

[371] الطراز الهرمي: بدأ المصريون في بناء الشكل الهرمي منذ الأسرة الثالثة بفضل إيمحتب وزير زوسر، حيث أراد أن يشيد قبرا فريدا للملك، وكانت المقابر إبان الأسرتين الأولى والثانية تأخذ الطراز المعماري المعروف بالمصطبة، ولهذا يعرف أقدم الأهرامات بـ"الهرم المدرج"، لأنه بني على شكل المصاطب، الواحدة فوق الأخرى. ولما اتخذ الملوك الشكل الهرمي، صار القبر في طراز المصطبة خاصا برجال البلاط والنبلاء. يقول "جورج بوزنر": "المصاطب قبور خاصة من عهد الدولة القديمة، بنيت حول هرم ملكي، ورتبت تبعا لخطة منظمة في الجيزة وسقارة..وهناك عدة أنواع مختلفة تتميزتبعا لما إذا كانت مصنوعة من الأجر أو من الحجر..وكقاعدة عامة تتكون المصطبة من جزءين مستقلين: حجرة الدفن، ممقصورة، وتقع حجرة الدفن عند قاع بئر رأسي عدة، وتحتوي على تابوت من الحجر منحوت كهبة خاصة من الملك"(جـ. بوزنر: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: مين سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص308). وللمزيد عن طراز الهرم المدرج في سقارة انظر:

Jill kammil: Sakkara, Longman, London, 1945, P. 84.

الملكي في مصر القديمة يأخذ طراز "الشكل الهرمي" الكامل أيام الملك "سنفرو" Senefru (ق 26 ق.م)، ثم بلغ القبر الهرمي ذروته أيام الملك "خوفو" Cheops (ق 26 ق.م) (وهو ابن الملك سنفرو) صاحب الهرم الأكبر، وهو الذي يعد أحد عجائب العالم القديم[372]. ويُعتبر –في رأي الباحث– هرم ميدوم (ق 26 ق.م) على بعد حوالي 90 كم جنوب القاهرة، والذي ينسب بناؤه للملك سنفرو، أقرب الأهرامات المصرية من الناحية المعماري لقبر أسكيا محمد، إذ يبدو الشكل المعماري بينهما متشابهًا لحد كبير، وبطريقة تلفت الأنظار (انظر شكل رقم 2).

شكل رقم 3: يصور قبر السلطان أسكيا محمد

وهو على ذات طراز الأهرامات المصرية لاسيما هرم ميدوم (انظر شكل رقم 2)

[372] للمزيد عن طرز الأهرامات المصرية، وتطور بناء الشكل الهرمي، انظر محمد أنور شكري: العمارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص296–297. وللمزيد عن البناء الهرمي، انظر: Lynne Sable & Philipe Steele: Thousand Great Events, Hamlyn London, 1997, P.9.

ويرى الباحثُ أنه كانت لدى "أسكيا محمد" خلال مدة انتظاره بالقاهرة الرغبة في اكتشاف مدينة القاهرة، وفك طلاسم تلك الحاضرة الإسلامية العريقة، وتبدو مكانة القاهرة جليةً آنذاك من خلال العديد من روايات المؤرخين والرحالة المسلمين الذين زاروها لاسيما أيام دولة المماليك (648-923هـ)، ولعل من أبرز ما ورد في ذلك الشأن ما يذكره ابن خلدون (ت: 808هـ) لما وطأت قدمه تلك المدينة للمرة الأولى[373].

ولاريب أنه تولدت لدى أسكيا ثمة رغبةٌ مُلحة في أن يُشيد له المهندسون قبراً على غرار الطراز الهرمي المُبهر الذي شاهده بأرض مصر، وإن كان يعلم- في ذات الآن- أنه ليس بالإمكان مُحاكاة أهرامات الفراعنة كما هي بالضبط، لا في ضخامتها الهائلة، ولا في روعة تصميمها المعماري، أو دقتها. وعلى هذا، أحضر السلطان "أسكيا محمد" معه خلال عودته من رحلة الحج مهندسًا معماريًا حاذقًا من بلاد الأندلس Andalou Architecte، ليقوم بالإشراف على بناء القبر الهرمي الذي يريد[374].

ثم جمع "أسكيا محمد" لبناء هذا القبر مئات من المعماريين، والبنائين، والعمال المحليين لاسيما من منطقة تدعى: "ماسينا" Macina التي تقع بالقرب من دلتا نهر النيجر، ثم عين أسكيا محمد المعماري الأندلسي ليشرف على كل أعماء أعمال البناء بالطريقة التي كان يريدها هذا السلطان[375]. وقيل إن أكثر من مائة

---

[373] انظر ماذا قاله ابن خلدون عن مدينة القاهرة، يقول ابن خلدون: "فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك.." (ابن خلدون: التعريف، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ص265).

[374] Le Tombeau des Askia Gao–Mali: P.9.

[375] Ibid: P. 9.

عامل وبنَّاء Macons أحضرهم أسكيا محمد من منطقة "ماسينا" ليبنوا قبره، وفيما يبدو أن بنائي تلك المدينة كانت لهم شهرة ومهارة في البناء في عموم ممالك غرب أفريقيا[376]. ومن ثمة، يرى البعضُ أن قبر "أسكيا محمد" يشهدُ بجلاء على حلقات التواصل الإبداعية والتأثير والتأثر الحضاري بين كل من شعب صنغي والعرب والبربر من جانب، والتأثيرات المعمارية المصرية القديمة على بلاد السودان الغربي من جانب آخر[377].

ونظرًا لأهمية هذا القبر الملكي، فقد كان يقام بجواره العديد من الاحتفالات، وكذلك المناسبات الدينية المهمة لاسيما في الساحة الكبرى المجاورة لهذا القبر، كما كانت تقام هناك صلاوات الجماعة، وحفلات الزواج، وإحياء عيد الاستقلال[378]. وعلى هذا فليس من المُستغرب أن يوصف قبر السلطان أسكيا محمد- بحسب البعض- بأنه من أهم المواقع التاريخية والتراثية في دولة مالي حاليًا رغم مرور مئات السنين على تشييده[379].

---

377 Le Tombeau des Askia Gao–Mali: P.4.

378 Ibid: P. 4

379 Early Islamic Civilization & African Kingdoms:, P. 98.

وللمزيد عن أهمية قبر السلطان أسكيا محمد في مالي حتى يومنا هذا، انظر:

Encyclopedia Britanica: The Songhai Empire the Rise and Fall of Great West African Empire, P. 4.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر العربية:

1- ابـن إيـاس: بـدائع الـزهور فـى وقـائع الدهـور، الجـزء الـرابع، تحقيـق: محمـد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.

2- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جـ2، تحقيق: الدكتور على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2015م.

3- ـــــــــــــــ: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: الدكتور على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م.

4- ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ2، تحقيق: محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.

5- التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق: الدكتور خليل محمود عساكر والدكتور مصطفى مسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م.

6- السخاوي: تُحفة الألباب وبغية الطلاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2014م.

7- السعدي: تاريخ السودان، مطبعة بردين، 1898م.

8- الشعرانى: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2011م.

9- السيوطي: حُسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المجلد الأول، تحقيق: الدكتور خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997م.

10- ـــــــــــــــــ: فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، فصل من كتاب الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م.

11- ـــــــــــــــــ: لُب اللُباب في تحرير الأنساب، جـ1، تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

12- ـــــــــــــــــ: الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت، تحقيق: محمد حسين الكبيسي، وصالح النعيمي، مجلة الجامعة العراقية، عدد 3/28، بغداد، د.ت.

13- محمد الصغير الوفرانى: نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، تقديم: أيمن فؤاد سيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2012م.

14- محمود كعت: تاريخ الفتاش، مطبعة بردين، 1913م.

15- النبهانى: جامع كرامات الأولياء، جـ2، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.

ثانياً- المراجع العربية:

16- إبراهيم طرخان: دولة مالى الاسلامية (دراسات فى التاريخ القومى الإفريقى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.

17- إسماعيل حامد إسماعيل علي: قبيلة جهينة ودورها الحضاري في مصر وسودان وادي النيل، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2016م.

18- الهادى المبروك الدالى: التاريخ الحضارى لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ليبيا، 2000م.

19- سحر عنتر محمد أحمد مرجان: فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2011م.

20- عبدالرحمن زكي: تاريخ الدول السودانية بأفريقيا الغربية، المؤسسة العربية،القاهرة، 1961م.

21- محمد عبدالله عنان: مؤرخو مصر الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأعمال الفكرية، القاهرة، 1999م.

22- نبيلة حسن محمد: تاريخ أفريقيا الاسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2009م.

ثالثاً- المراجع الأجنبية:

23- **Carl Grimberg:** Histoire Universelle, Tome 8, Presses de Gerard, Belgique , No Date.

24- **J. Spencer Trimingham:** A History of Islam in West Africa, Oxford University Press, London, 1975.